مائة سؤال عن الإسلام

للشيخ/ محمد الغزالي

دراسة

أ.د. محمد عمارة

الجزء الرابع



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م




٤٨ - ماذا عن تجديد الفكر الديني في الإسلام؟

جرت على الألسنة كلمة تجديد الإسلام، وظن البعض أن المقصود منها ترقيع ثوبٍ لحقه البلى أو تحريك آلة أدركها العطب! وقد يتطلب ذلك إهمال شعبة من شعب الإيمان، أو التجاوز عن حد من حدود الله، أو إرخاص الماضي غرورًا بالحاضر، وتمشيًا مع المدنية الحديثة..!

وهذا كله لا يخطر ببال مسلم، ولا يفكر فيه إلا لصيق بديننا لا يدري عنه شيئًا..! إن التجديد المنشود حماية الأصل مما عراه، وتنقيته مما شابه وعكر رونقه، إنه غسل الثوب حتى يزول عنه القذى، أو إزالة الغبار عن صورةٍ غطى الإهمالُ ملامحها.. قلتُ في أول كتاب الفقه: «إن حقائق الدين من منابعه الفريدة ما إن أخذت تسير في مجراها من هذه الحياة حتى علق بها من رواسب البيئات، ومخلفات القرون، وجهالات العامة، وشهوات الخاصة ... ما ذهب بالكثير من نقائها وصفائها، حتى لتشبه ماء النيل في مجراه الأدنى، لا يصلح للشرب إلا بعد مجهودات متعاقبة من التنقية والتصفية ترده سماويًا كما كان»!

هل إمداد الناس بالمياه النقية يضيف شيئًا إلى جوهرها الأصلي؟ لا، الأمل كله أن يعود الماء كما نزل من السماء! وأملنا في تجديد الإسلام قريب من عملنا في تنقية مياه الشرب.

وقد نبه رسول الله ﷺ إلى جلال هذا العمل عندما قال:






«يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[1]!!

والكلمات الثلاث فيها من إعجاز النبوة المحمدية ما يبهر ويسحر! قديمًا رأينا عبادًا غلاة يكرهون الحياة، ويقررون عدم الزواج، وصيام الأبد، وقيام الليل وهجر النوم، ثم رأينا كيف تعلَّموا الاعتدال، وترك الغلو.

وقديمًا رأينا من يضع الحديث في فضائل السور فإذا قيل له، كيف تفعل هذا والرسول ﷺ يقول: «من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»[2]؟ فيقول: كذبت له ولم أكذب عليه!!

هذا لون مفضوح من انتحال المبطلين، ومثله كل ابتداع في الدين، خلق لتقاليد رديئة كبلت الأمة وأقعدتها في عالم يجري كالريح المرسلة.

أما تأويلات الجهلة فما أكثرها في تاريخنا القريب والبعيد! وآخر ما وقع في يدي كتاب لمؤلِّف من الجزيرة العربية زعم أنَّ به نيفًا وأربعين دليلًا على أن الأرض واقفة والشمس هي التي من حولها تدور.

ونظرتُ في هذه الأدلة فإذا هي تفاسير خاطئة لأكثر من أربعين آية قرآنية، مال بها الكاتب المسكين عن وجهتها

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى بلفظ مختلف.

(٢) رواه أحمد في مسنده وابن ماجه في سننه.





ليُشعِر الناس بأن الإِسلام والعلم الحديث خصمان لا يتفقان !

والواقـع أن حـركات التجديد والإِصلاح تخبـو أو تضيء وتكبـو أو تمضي بمقـدار موقفها من هـذه الآفات ؛ تحريف الغالين، وانتحال المبطلين.. وتأويل الجاهلين !

ولمـا كان تجديـد الإِسـلام عودًا إلـى الأصل النـازل من السماء، فإن المثل الأعلى والقدوة الصالحة لا يؤخذان إلا من سيرة محمد ﷺ وصحبه !

إن محمدًا عليه الصلاة والسـلام، والرجال الذين جمعهم حولـه ورباهم علـى يده هم وحدهـم الذين يمثلون الإِسـلام الحـق، وهـم أفضـل القـرون وأجدرهـا بالاتباع، وقـد وقع انحراف عن خطهم، وبدأت زاوية الانحراف تتسـع أضلاعها بمر الزمان فإذا جاء اليومَ من يريد العودة إلى القرن الماضي، والقرن الذي سـبقه، فهو لا يزيد الأمـة إلا خبالًا، ولن يصنع شـيئًا أكثـر من مـد زاويـة الانحراف، وتوسـيع الشـقة بين الصراط المسـتقيم ومواريث العوج التي نشكو منها، والتي انتهت بنا إلى أن صرنا في مؤخرة العالم.

والمنار الذي نمشي على سناه هو جو الشورى أيام الرسول ودولة الخلافة، عندما كان الحاكم -تأسـيًا برسـول الله ﷺ- يَوْجَـل من الكبر، ويسـتكين للحق، ويستشـير أهل الذكر، ويـرى أنه أجير للأمة يكدح لمصلحتهـا، ولا حق له في أكثر من مرتبه المفروض له، ويشـعر بالرهبـة عندما يقال له: اتق الله، ويـرى أسـرته بعض الرعية الذين لا حـول لهم ولا طول،





ويقتص من نفسه إذا أخطأ، أو يترك لأمناء الأمة وأهل مشورتها أن يقتصوا منه، كما قال عمر بن الخطاب -وهو يؤدب كبار الموظفين-: لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يقتص من نفسه!!

هذه التقاليد في فن الحكم لها نظائر في شئون المال، والقضاء، وشتى الأوضاع الاجتماعية، بل لها نظائر في شئون العبادة.

ثم شرع المسلمون يتزحزحون عنها قليلًا حتى أمسوا سواد العالم الثالث، أو حثالة البشرية التي تملأ الأرض..!

وذلك لأنهم ذُهلوا كل الذهول عن سنة نبيهم، وتقاليد أسلافهم، ولم يعوا من دينهم شيئًا ذا بال.

وبديهٌ أن ما حدث قديمًا يتضمن مبادئ، ويرسم اتجاهات، وأن صور التنفيذ قد تتجدد على اختلاف الليل والنهار داخل النطاق الذي يصون المبدأ والوجهة.

فالجهاد حق، وندب الناس إليه قد يكون بإِعلاء عادي، أو بصيحة «الصلاة جامعة».. فهل ذلك الإِعلان أو تلك الصيحة هما الآن وسيلة إعداد الجيوش وحشد المقاتلين؟ إن الوسائل تتغير، والمبدأ ثابت.

والشورى حق، وكان تنفيذها قديمًا يعتمد على وسائل قليلة الكلفة، أو على طلب الرأي من الحاضرين، لكن الأمر الآن يتطلب أنظمة دقيقة وتراتيب واسعة.. والمشغولون بتجديد الفكر الإِسلامي ينبغي أن ينظروا في هدف الوسائل المطلوبة، وأن يتخيروا منها أفضل ما يحقق الهدف، ويبرز





محاسن الإسلام ولا عليهم أن يقتبسوا من هنا ومن هناك.

قال لي أحد الناس: أليس عيبًا عليك وأنت من دعاة الإسلام أن تُعْجَب بالديمقراطية وتدعو لها؟ قلت له: الحق معك! ينبغي أن أدع الكلمات الأجنبية، وأستخدم الكلمات العربية..!

قال: الأمر أكبر من أن يكون اعتراضًا على كلمة، إننا نرفض تنويهك بنظام غير إسلامي!

قلت له: إنني مسرور بحبك للإسلام، وأؤكد لك أنني لست أقل حبًا له منك!

فاسمع ما عندي...

انظر إلى حركة المال العام والخاص في دار الإسلام وبعيدًا عن دار الإسلام! إن استغلال النفوذ لكسب درهم من طريق قريب يقتل صاحبه أدبيًا في أقطار الأرض كلها، أما لدينا وحدنا فإن امتلاك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والمساحات الشاسعة من أراضي الزراعة والبناء يتم بلا ضبط أو حساب، وتسعة أعشار الأغنياء من هذا القبيل!!

هل لهذا العوج الرهيب صلة بالإسلام؟ إن ديننا أول من أعلن الحرب عليه!

فماذا صنعتم لاتقاء هذا البلاء؟

هناك من خوَّف بالله وذكر الدار الآخرة في وعظ بليغ أو غير بليغ.. وهناك من سكت وآثر السلامة! هناك من تحدث عن بدع المساجد، وسخط لزيارة النساء للمقابر! هناك من تحدث عن أن الحلف بغير الله شرك، ونسي أن الرياء شرك!





الحق أن موكب المتحدثين في الإِسلام مليء بالهازلين، وهؤلاء يُميتون الإِسلام ولا يجددونه.

ثم سل نفسك أيها الأخ المعترض: لو كان السلف الأولون يعتمدون في غذائهم وكسائهم ودوائهم على ما يرد إليهم من الفرس والروم أكان ينجح لهم جهاد؟ أو يقدرون على تحرير مستضعف، وحماية حقيقة؟

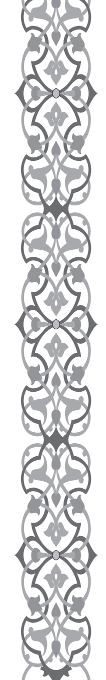
إنهم سيموتون في أماكنهم هزالًا!! فإذا شرعنا نتحدث عن الموات المادي والضياع الإنساني لأمَّتنا، وبدأنا تحريكها لتخدم نفسها ورسالتها، جاء مَنْ يطعن في كفاحنا.

إن تجديد الفكر الديني يتطلب عقلًا أنضج، وقلبًا أزكي! يتطلب بصرًا بأخطاء التاريخ ومزالق الأجيال، يتطلب علماء بالكتاب لا مجرد قراء، وخبراء بالسنة لا مجرد رواة، وفقهاء في الشرع لا مجرد مقلدين، وبصراء بالتربية والتثقيف لا عبيد تقاليد سائدة، وأصحاب دراسات عفنة.






٤٩ - ما مكانة الفقه الإسلامي في الإسلام كله..؟



عندمـا أراد النبي ﷺ أن يدعو لابن عمه عبد الله بن عباس دعـوة ترفع شـأنه وتعلي رتبته قـال: «اللهم فقهــه في الدين وعلمه التأويل»(١).

وثبـت أن الله إذا حبا أحدًا فضلًا، وآتاه من لدنه خيرًا رزقه الفقه «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»(٢).

وكلمة الفقــه في ثقافتنا التقليدية تشـبه كلمة الفكر في عصرنا الحاضر، إذا وُصف أحدُ الناس بأنه مفكر فمعنى ذلك أن في ذكائه حدة، وفي بحثه عمقًا، وفي نظره بعدًا.

وقد تميز الفقهاء في تاريخنا العلمي بأنهم الأعرف بأسرار الديـن، ووجوه الحكمة، وعلل الحكم، وأهداف الشـريعة، ومـن ثم ألقـت الجماهير إليهـم بالزمام ومشــت وراءهم في أغلب شئونها.

ويوجـد ناس صالحون قليلو الفقه، لعلهـم المعنيون بقول القائـل: مِـنْ أصحابـي مَـنْ أرجو دعوتـه وأرفض شـهادته.. والواقـع أن هنـاك متدينين لا تقبـل فتاواهـم ولا أحكامهم، كبعض الخوارج، وبعض الصوفية، وبعض المحدِّثين، فإنهم مع نقاء سـرائرهم لم يرزقوا الحكمة، والوعي، ولم يحسنوا العمل بما يعلمون؛ لأنهم حرموا الفقه!!

والحاجـة إلى الفقهاء ماسـة؛ لأن الفقه الإسـلامي تناول

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.





شئون الحياة كلها، فهو مع المرء في يقظته وفي فراشه، في خلوته وجلوته، في سفره وإقامته، في أدق شئون جسده، وفي علاقته بالدولة، بل في علاقته بشتى الملل والأجناس.

واستيعاب الفقه لنواحي الحياة الخاصة والعامة على هذا النحو يجعله المسئول الأول عن حاضر الأمة ومستقبلها، ويجعل الفقهاء القادة الحقيقيين للجماهير.. ومعلوم أن الفقه يستمد أحكامه من الكتاب العزيز، ثم من ألوف السنن التي نقلت عن صاحب الرسالة خلال ربع قرن، ثم من القياس والاستصلاح والاستحسان والاستصحاب والقواعد المستفادة من أصول الإسلام الأولى!

والخبرة بهذا البحر المتلاطم من المعارف تحتاج إلى عبقرية فذة.. ثم ينضم إلى ذلك ما قرره المسلمون -بإجماع- أن العلم النظري وحده لا يكفي في إعطاء قيمة أدبية لإنسان! لا بد معه من تجرد لله، وصلابة في الخلق، ونزاهة في السلوك واستعلاء على إغراء الحكم والمال!

إن الفقه والفقهاء أسس شامخة في حضارتنا، ولا يضير البحرَ أحيانًا أن يحمل موجُه بعضَ الغثاء!

والمسلمون الآن يعانون هزائم فقهية وسياسية أليمة! ومع تسلط الغزو الفكري على أقطارهم حسب البعض أن الدين صلة خاصة بالله، وأن الصلات الإنسانية بعد ذلك موكولة إلى الفكر الإنساني العادي، وبذلك يسقط الفقه عن مكانته، ويتحرك الناس وفق ما يضعون من قوانين!

وهذا الكلام جهالة فاضحة بالإسلام، بل هو ارتداد حقيقي





عنـه، فإن القـرآن الكريم كما تحدث عـن العقائد والأخلاق تحدث عـن العلاقات الاجتماعية والدولية، ورسـم للأسـرة وللدولـة جميعًا ما شـاء الله من شـرائع وتوجيهات، وسـيرة محمد ﷺ لم تكن سـيرة رجل يعيش في صومعة، بل كانت سيرة عابد مجاهد يشرف على استقامة الأخلاق، كما يشرف في الوقت نفسـه على توزيع المال في المجتمع، والإمسـاك بدفة الحكم، وشئون الحرب والسلام، أي إن صومعته كانت الدنيا كلها.

وموضوع الفقه الإسلامي -بعد العقائد والأخلاق- يتناول أعمـال المكلفين دون اسـتثناء، ويبت فيهـا وفق توجيهات الكتاب والسـنة، وما يعتمد عليهما من دلائل.. ألا ما أرحب هذه الدائرة وأغناها!

وأرى أن اختلاف وجهات النظر بين الفقهاء يعطي الساسة والقضاة فرصًا كثيرة للتصرف في نطاق الشـريعة على هدي مـن مبادئهـا، ولنضرب مثلًا ممـا يقع في عصرنـا هذا الذي تقاربت فيه الأزمنة والأمكنة والشعوب والملل.

يقول الشـيخ محمود شلتوت: «من مسائل الخلاف أن أبا حنيفة يرى مسئولية المسلم -وتغريمه- إذا أتلف مالًا لذمي إذا كان هذا المال مما يحرمه الإسلام كالخمر والخنزير، ولو كان المسلم قاصدًا بإتلافه وجه الله وثواب الآخرة».

وخالفه الشـافعي في ذلـك، وقال لا مسـئولية ولا غرامة عليه إذا أتلف ما حرمه الشارع!!

ويعتمـد أبو حنيفة فـي تقرير الضمان علـى المتلف بأن






الإسلام أمرنا بترك أهل الكتاب وما يدينون، وقد روي أن عمر بن الخطاب سأل عماله: ماذا تصنعون بما يمر به أهل الذمة من الخمور؟ قالوا: نعشرها!! فقال: لا تفعلوا، ولوهم بيعها، وخذوا العشر من أثمانها!

قال أبو حنيفة: «لولا أنها متقومة -أي لها قيمة- وأن بيعها جائز بينهم لما أمرهم بذلك! ومن المعلوم أن التقوم أصل الضمان والمسئولية، أما إهدار تقومها فإنما هو بالنسبة إلى المسلمين وحدهم».

ومن مسائل الخلاف كذلك أن أبا حنيفة يرى الاقتصاص من المسلم إذا قتل كافرًا من أهل الذمة، ويحكم بقتله، ويخالف في ذلك الفقهاء الآخرين.

وكلام الأحناف هو الذي يمكن إمضاؤه في عصرنا، وتستطيع الدولة الإسلامية به أن تتعايش مع الأسرة الدولية، وتستطيع من خلال هذه المعايشة أن تبلغ رسالتها وتعرف شعوب الأرض بما عندها.

وكل ما يتطلبه الأمر إذا اختارت الحكومة مذهب الأحناف أن يتقبل الشافعية والحنابلة الموقف بغير اكتراث، وألا يفكر بعضهم في اللجوء إلى عصيان مسلح!!

إن ضيق الخلق والأفق يجر على المسلمين البلايا، وما كان الفقهاء قديمًا يرون الخلاف مثار فتنة، بل وجدنا الشافعي يقول: «الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة» مع رفضه لكثير من آرائه!

كنت أسمع برنامجًا فقهيًا في إحدى الإذاعات العربية،






فعجبت لإجابات المفتي على الأسئلة التي توجه إليه، وقلت: هذا كلام أقرب إلى الهدم منه إلى البناء..

سئل -عفا الله عنه- عمن أخرج زكاة رمضان نقدًا؟ فقال: لا تقبل، إلا أن تكون شعيرًا أو تمرًا أو شيئًا من غالب قوت البلد! ثم استطرد يصف إخراجها نقدًا بأنه مخالف للسنة، وأن رسول الله ﷺ يقول: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»!!

وبدا من حديث المفتي أن إعطاء الفقير مالًا -ريالات أو جنيهات- بدعة.. وأن الأحناف بهذا المسلك أصحاب بدعة!

وقد رفضتُ كلام الرجل جملةً وتفصيلًا، فإن مصلحة الفقراء هي التي تُرعَى، وأخذ المال أجدى عليهم وأطيب لأنفسهم، وجمهرة المسلمين تخرج زكاة رمضان نقدًا تبعًا لمذهب أبي حنيفة، وهو أقرب إلى العقل ولا يصادم نقلًا.

وسئل -هو أو زميل له- من طلبة إحدى المدارس عن الكتب التي بين أيديهم، وما تحتويه من صور كثيرة؟ فأجاب بعدما شكا عموم البلوى بأن رءوس هذه الصور يجب أن تقطع! وبذلك يحل تداول هذه الكتب!

ولماذا تقطع تلك الرءوس؟ لأن المصور يكلف يوم القيامة بنفخ الحياة في هذه الصور، إذا كانت تامة!

وتساءلت دهشًا: كيف تحيا صور على الورق، أو على شاشة تلفاز، أو على سطح مرآة، سواء بقي الجسم برأسه أو بقي بلا رأس؟

ظاهرٌ أن المفتي يريد نقل حكم التماثيل إلى الرسوم المسطحة، وهو نقل مرفوض.. والأجيال التي تشب بهذه





العقلية تفقد الحس الاجتماعي السليم.

ونعود إلى فقهنا الإسلامي الذي يتسع طولًا وعرضًا ليشمل كل شيء، إنه يتحدث في شئون العبادة من صلاة وصوم وزكاة وحج، ويتحدث في شئون الأسرة من زواج وطلاق وحضانة ومواريث، ويتحدث في الشئون التجارية من بيع وإيجار وشركات وكفالات وحوالات... إلخ، ويتحدث في الجنح والجنايات المتعلقة بالعرض والدم والمال، ويشرع أنواع الحدود والقصاص، ويتحدث في الشئون الدولية وما قد يقع من حرب، أو يعقد من صلح أو هدنة أو أمان.. إلخ.

وهناك ميدان ندر الكلام فيه أو انعدم وهو الفقه السياسي الضابط لعلاقات الأمة بحاكمها، وكيف يحاسب ويختار.. وميدان آخر لشئون العمل والعمال، يؤسفني أنَّ أكثرَ قوانينِه يُنقل الآن من الخارج لعجز فقهائنا عن تلبية مطالبه!

والذي أقترحه لخدمة الفقه الإسلامي أن تُطوَى مسافة الخلاف بين رجاله، وأن يتعاونوا على سد الثغرات واستدراك ما فات، ويواجهوا ببصيرة نيرة قضايا اليوم والغد، وأخيرًا هناك موضوع جدير بالدراسة الجادة، موضوع تقنين الفقه الإسلامي وصب أحكامه في مواد محدودة، يتصرف القاضي على ضوئها، وفي نطاقها.

إن ذلك أبعد عن المجازفات وأدنى إلى العدالة، وما زلنا نذكر أن فوضى الإفتاء والتقاضي قديمًا هي التي انتهت بإغلاق باب الاجتهاد، وتجميد الفقه كله، وما تبع ذلك من ركود وتراجع.





٥٠- لماذا يجب أن يكون الفقه الإسلامي المصدر الأساسي للتشريع؟

وظيفـة القانون في أي مجتمع أن يحـرس عقائده وقيمه، وأن يحمي أفراده، ويصـون حقوقهم المادية والأدبية وفق ما استقر بينهم من مبادئ وَمُثُل!

وبديهـي أن تختلف القوانين باختـلاف المجتمعات التي تسـودها! ففي العالم مجتمعات وثنيـة وملحدة ومجتمعات تنتمـي إلى اليهودية أو إلى النصرانيـة.. ووظيفة القانون في بلـد يرى الدين خرافة غيـر وظيفته في بلد يحترم الدين على نحو ما!

وفي الأقطار التي بقيت للأديان فيها قيمة اسمية قد يمنح الدين قدرًا من الحركة بقدر استكانته إلى الأنظمة وهروبه من مواجهتها، فـإذا ظهرت عليه أعراض المقاومة، لاحقه النظر الشزر[١]، ليسكن أو ليذهب حقه في الحياة!

وخـلال القرنيـن الأخيرين سـقطت مسـاحات هائلة من العالم الإسـلامي في أيدي أعداء الإسلام، فاستولى الاستعمار الشـيوعي على أقطار رحبة في آسـيا وأوروبـا وأفريقيا، كما استولى الاستعمار الغربي على أقطار أكبر وأخطر.

وشرع كلا الاستعمارين يفرض قوانينه على الأراضي التي احتلهـا، ويعمل بدأب وإصرار على سـلخ الأمـة من عقائدها

(١) يقال نظر إليه شزرا أي نظر إعراضًا أو غضبًا. (المجلة).






وشرائعها وقسرها على قبول نظم أخرى لا تمتّ بصلة ما إلى كيانها الروحي والعقلي.

كان المسلمون كجسد انتزع قلبه ثم جيء له بقلب ثور أو ذئب ليحل محل القلب المتقطع!!

إن معنى ذلك الموت البطيء أو السريع! ليكن، فذلك هو المطلوب! في اليمن أو في التركستان، يكلَّف المسلم أن يحيا وفق معتقد جديد يضع الوحي الأعلى في المتاحف ويجعل الولاء لسماسرة الفكر الأحمر، لا لله وأنبيائه!

وينهض القانون بدور التنفيذ الصارم لمتطلبات الوضع الجديد.

وعلى القانون الذي وضعه الاستعمار أن يصرف البصائر والأبصار عن شرع الله وهداه حتى يعمل الزمن عمله في تمويت الإسلام كله بعدما مات تشريعه في كل ميدان!!

إن للقوانين الوضعية التي جلبها الاستعمار معه وظيفة مقررة، وظيفة أهم من اقتياد أمة مهزومة عسكريًا وسياسيًا، وفرض إرادة الغالب عليها! إن القوانين الوضعية هنا تشويه متعمد لوجه الأمة الإسلامية، أو مسخ حقيقي لكيانها الروحي والعقلي، والهدف الأخير الإتيان على الإسلام من القواعد!

وعندما نقيس المسافة بين الدين ومطالبه وبين القوانين المجلوبة وآثارها، تبدو الشقة بعيدة.. بعيدة! خذ مثلًا قضية الخمر -وهي نموذج للتقاليد الغربية الوافدة- إن المسلم يراها رجسًا من عمل الشيطان، ويراها تصد عن ذكر الله وعن



الصلاة، ويرى شاربها ساقط المروءة واجب العقوبة، ولكنه ينظر إلى أرجاء المجتمع فيرى مصانعها تقام، وحوانيتها تفتح، وأسعارها تقدر، وأحفالها تبرز، وإعلاناتها تكثر، وشاربيها يكرمون ولا يهانون، فأي تحدٍّ لإيمانه أبلغ من هذا التحدي؟!

إن ولاءه لله ولأحكامه يُصدَم، ومبدأ السمع والطاعة يهتز، والانزلاق عن سائر التعاليم الدينية الأخرى يُمَهَّد!!

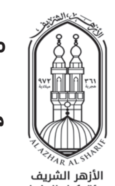
ومن حق المسلم الذي ولد في عصر الهزيمة الإسلامية وانتصار الجاهلية الحديثة أن يشعر بالدهشة والتساؤل: لماذا كتب على آيات المصحف أن تموت وأن يرفض انطلاقها إلى الحياة؟ ولماذا تركت آيات أخرى يستطيع من شاء أن ينفذها وأن يهملها، وهل هذه الاستطاعة باقية أم إلى حين؟ ثم تلحق بالآيات المعطلة؟!

إن تطلع أي مسلم إلى طاعة ربه في كل ما أمر به أو نهى عنه شيء عادي أو هو الشيء المرتقب الذي لا يرتقب غيره ولذلك فمن السماجة التي لا قرار لها أن يستغرب أحدٌ المطالبة بحكم الله، وأن يعرقل سير القوافل المؤمنة وهي تنتصر لشرائع السماء.

وعند التأمل نشعر بأن واضع القانون كان يتخيل نفسه مكان المنحرف ثم ينشئ العقوبة المناسبة فتجيء وكأنها اعتذار عن المجرم أو تقدير لوجهة نظره، أو إتاحة لفرص النجاة أمامه.

أعني أنه ينظر في حال القاتل، فإن كان الدافع إلى القتل شعورًا



مفاجئًا تملكه، أبعد عنه القصاص ومهد أمامه طرق الحياة!

إن واضع القانون فى الحقيقة كان ينقذ نفسه من القتل لأنه يتصور نفسه مكان المجرم، أما الآثار الاجتماعية لمنع القصاص فهو يتجاهلها.

وقد مضى هذا الشعور المعتل في طريقه حتى أبطل -أو كاد- عقوبة الإعدام لجماهير القتلة.. وأمسى من العدالة أن يغتصب رجل ذئبٌ بضع عشرة فتاة، ثم يقتلهن جميعًا، ثم يقضي بقية حياته فى سجنٍ مهذَّب!!

وفي نظر القانون الوضعي أن الجسد ملك صاحبه، ليس لله حق فيه! فإذا زنى إنسان بملء إرادته فلا حرج ولا جريمة، وإذا كان هناك حق لزوج، كانت المؤاخذة محدودة، تذهب بتنازل الزوج!

والمال أخطر من العرض، فسن الرشد المالي إحدى وعشرون سنة، أما سن الرشد عندما يتصرف امرؤ في عرضه، فثماني عشرة سنة، والقضاء في شئون المال ملزم بما كتب، فلا تسمع الدعوى في دين شفوي زاد على عشرين جنيها، ولا مكان لضمير القاضي هنا في محو أو إثبات.. أما في شئون الدم والعرض فللقاضي أن يتصرف بما يراه أدنى إلى الصواب، والصواب هنا وفق مقررات البيئة، وفي قضية الثريّ المصري «علي فهمي» الذي قتلته زوجته الفرنسية، رأت المحكمة أن



القاتلة لا تستحق عقوبة ما تقديرًا لظروفها النفسية[١] ! !

وانقطاع الصلة بين التوجيه الإلهي وعلاج الانحراف انتقل من القضايا الخاصة إلى القضايا الدولية ؛ فإذا قُتل يهودي في روسيا قامت الدنيا وقعدت ، وإذا قُتل ألف مسلم في بلد آخر لم يتحرك أحدٌ . . ! !

ومظالم الزنوج في جنوب أفريقيا[٢] قد تثير قليلًا من التعليق ، ولكن هذا التعليق يختفي عندما تبلغ القضية مجلس الأمن ويقترح توقيع عقوبات على جنوب أفريقيا ! إن الدول العظمي كلها تستغل حقها في الاعتراض لتبقى جنوب أفريقيا ملكًا خاصًا للرجل الأبيض -يقترف ما يشاء دون حرج- ويجتاح حقوق السود بلا وجل .

وكان هلاك الأمم السابقة ، أنهم إذا سرق الضعيف قطعوه وإذا سرق الشريف تركوه : أي إن العدالة تتلون مع القوة والضعف ، وذاك ما يحدث الآن مع التقدم الحضاري الكبير ، إنه تقدم علمي حقا ، ولكنه مثقل بأوزار الهوى وأوحال الشهوات ؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا يخضع لحكمه ، ولا يتبع هداه .

ولا نزعم أن القوانين الوضعية شر كلها ، فهي من صنع

(١) تعود وقائع القصة إلى سنة ١٩٢٢م. وكان قد تزرج من مارجريت في ظل عدد من الخلافات الأسرية التي تعود إلى اختلاف الثقافة منعها من زيارة ابنتها الغير شرعية فقامت بإطلاق النار عليه. (المجلة)

(٢) ألف الكتاب في فترة الفصل العنصري في جنوب إفريقيا. وقد انتهى العمل بهذا النظام.



الإنسان الذي يصيب ويخطئ ويضل ويهتدي، وربما تضمنت أمورًا جديرة بالقبول خصوصًا عندما تعمل في الميدان الإداري أو الدستوري.. لكن ذلك لا ينسينا أمرين: أولهما أنها جعلت إقصاء الإسلام وإزهاق روحه هدفها الكبير، والآخر أنها تنقل إلينا قيم وأعراف أقطار جرفتها فلسفات مادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر!

ومن ثم كان الخندق عميقًا بين هذه القوانين الغازية المفروضة كرهًا، وبين جماهير لم تنس ولاءها لله ورسوله، ولم تتنكر لماضيها الإسلامي الثابت.

والصراع القائم الآن هو بين سماسرة الغزو الجديد ومروِّجي عقائده وأنظمته وبين حراس الإسلام الأوفياء لتراثه وتاريخه وأمته.

ولما كان الإسلام دينًا متعدد الشُّعَب، له في كل ميدان توجيهات ومعالم فإن رحى المعركة تتسع يومًا بعد يوم تتناول السياسة والاقتصاد، كما تتناول الزواج والحضانة، وقد رفضت الجماهيرُ أن تقسِّم ولاءها بين ما تريد وما يراد لها.

وكل يوم يمر يزداد صوتها علوًا بضرورة تحكيم الإسلام في كل شيء، وإنزال العبادات والمعاملات جميعًا، على شرائعه المقررة في الكتاب والسنة.

وأعداء الإسلام أيقاظ لموقف أمته من شريعته المهدرة، وهم يضعون العوائق علنًا وسرًا أمام عودة الشريعة الإسلامية.





وأمل الفريقين لا يخفى، فأعداء الإسلام يريدون بقاء القوانين الوضعية تمهيدًا لإزالة الإسلام كله، حتى من مجال الأخلاق، فالأخلاق المدنية لديهم أفضل من الأخلاق الدينية.

وأنصار الإسلام يبغون من عودة التشريع الإسلامي حماية الإيمان ذاته وحراسة آثاره في شئون الحياة كلها، ورد ما انتقص منها، وإرغام المغيرين على الانسحاب بكل مقوماتهم المضادة لتعاليم الإسلام المناوئة لشعائره وشرائعه.

بيد أننا بعد ما كشفنا جبهة العدو لا نريد أن ندافع عن أنفسنا بالباطل، فقد ظلمنا رسالتنا عندما جمدنا فقهنا ألف عام، وأخذنا نطحن في الماء خلال تلك القرون، ما نزيد ولا ننقص وكأنما أثبتنا الفلك وأغمضنا عين الزمان.

وعندما أُرغمنا على الحركة شرع لفيف منا يبدأ العمل من حيث وقف الآباء غيرَ معترف بأن شيئًا ما قد حدث في طول العالم وعرضه.

إنه لا بأس أن نغالي بما عندنا، على شريطة ألا نبخس ما حققه الآخرون في فترة غيابنا عن قيادة العالم.

وشيء آخر لا بد أن نراجع أنفسنا فيه، أن الشمال الأفريقي لا يعرف إلا فقه الإمام مالك، وأغلب الأتراك والهنود وجمهور من العرب لا يعرف إلا فقه الإمام أبي حنيفة.. ولكل إمام كبير أتباع متحمسون.

وهؤلاء الأئمة الأعلام صنعهم الإسلام ولم يصنعوه، وما أتردد في اعتبارهم قممًا مرموقة، لكن مسلمي العصر الحاضر



لا يجوز أن يَلْقوا حضارة العصر وفِكرَهُ الموَّار[1] بوجهة نظر واحدة لإمام لا يعرفون غيره.. الإسلام أكبر من ذلك.

الفقيه المسلم في هذا العصر يجب أن يستوعب ما قاله رجالات الإسلام في تفسير نصوصه، وأن يواجه بهذه الحصيلة الفنية ما طلع به العصر من نظرات ومبادئ!

إن التعصب المذهبي منكور بين العامة، وأرى أنه بين الفقهاء جريمة غليظة.. فإذا شرعنا نرد القوانين كلها إلى فقهنا الإسلامي، فسنجد أنفسنا أمام ينابيع دفاقة وثروات طائلة ورجال مهدوا الطريق واستحقوا التقدير.. وما علينا إلا أن نحسن التأسي ونسرع المسير.

---

(١) يقولون ريح موارة أي تثير التراب والفكر الموار القوى الذين يثير قضايا عديدة. (المجلة)







٥١- ما معنى الإجماع وما مكانته في الإسلام؟

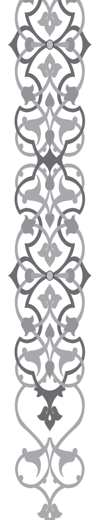
للإجماع معنيان نحب أن نوضحهما : فهناك إجماع على حكم شرعي مستفاد بطريق القطع من كتاب الله تعالى، أو من سنة رسول الله ﷺ ، أي إن هذا الإجماع يعتمد على نص هو الذي أثبت الحكم الشرعي ويستوي في هذا النص أن يكون من الكتاب أو السنة، ما دامت دلالته قاطعة !

والمجمعون هنا هم الأمة كلها من عامة وخاصة، الأمة الإسلامية إذا اتفقت كلمتها على حكم شرعي من هذا القبيل فقد زادت الحكم قوة، ومنعت للأبد أي شغب عليه «ولما كانت الأمة لا تجتمع على ضلالة فإن الخروج على هذا الحكم يُعدُّ انفلاتًا من الإسلام وخروجًا عن الدين» !

أما الإجماع الآخر فهو اتفاق أهل النظر، أو أرباب الاجتهاد على حكم ثبت بطريق القياس أو رعاية المصلحة أو تطبيقًا للقواعد الفقهية المعتبرة، أو ما أشبه ذلك من أدلة.

ويجب احترام هذا الإجماع، والتزام الأفراد به، وإعادة النظر فيه إذا حدث ما يستوجب إعادة النظر فيه؛ فهو ينسخ بإجماع آخر، من أهل الذكر، وأصحاب الحل والعقد، وليس لأحد أن يتصرف متجاهلًا هذا الإجماع، والأمة التي تحترم نفسها، والأفراد الذين يحترمون أمتهم لا بد أن يتقيدوا بهذا الإجماع؛ لأن الخروج عليه قد يكون فسوقًا أو عصيانًا، وربما لابسه ما يؤدي إلى الكفر.

ونعود إلى شرح الإجماع بمعنييه وضرب الأمثال التي تكشف حقيقته !







أمر الله بالصلاة فقال :

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾

(البقرة : ٢٣٨)

ثم علَّم الرسول الأمة كيف تصلي وبين عمليًا أن الصلوات المفروضة تحتوي على سبع عشرة ركعة . . موزعة على الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وأن كل ركعة بها ركوع واحد وسجودان . . إلخ .

وأجمع المسلمون إجماعًا مؤكدًا منذ القرن الأول على هذه الحقائق ! ما شذ أحد !

فإذا جاء اليوم من ينكر فريضة الصلاة ، أو من ينكر أداءها على النحو السابق ، فليس بمسلم !

وقد التقيت بأناس ينكرون السنة ، وسألت أحدهم : كيف تصلِّي ؟ فقال كلامًا استغربته !

ومن عجب أنه لما مثَّل لي السجود وضع ذقنه على الأرض ، وقال : هكذا أمرنا الله في كتابه وتلا الآية :

﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدًا﴾

(الإسراء : ١٠٧)

وحدث أن أحد الزنوج الأمريكيين المقدَّمين في قومهم رأى ألا يكون الصيام في شهر رمضان ، فكان يصدر قرارًا بالشهر الذي يختاره كل عام ، قد يكون يناير أو فبراير على حسب ما يهوى !

ويقول الله تعالى :





﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ (النساء: ١١)

فإذا أتى من يقول: هذا حكم مؤقت، كان يصلح قديمًا ولا صلاحية له الآن، أو أتى نص قرآني آخر تلقته الأمة جمعاء بفهم موحد، وقبول مطلق، فرفض هو قبوله وإمضاءه، فهو بهذا الرفض ينسلخ عن جماعة المسلمين! وخروجه على جماعتهم أمارة على الكفر بدينهم.

والفقهاء من قديم يسوون بين جحد العقيدة وبين إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

ونحن لا نشذ عنهم، ولا نحب أن يكون الدين مرتعًا للعبث والمجون، وإن الإجماع والحالة هذه سياج لحفظ الحرمات، ومنع الفتن، وتوجيه الجهود إلى البناء المجدي.

أما الإجماع بالمعنى الثاني، فقد شرحه الإمام محمد عبده وهو يفسر قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ (النساء: ٥٩)

قال رحمه الله إنه فكر في هذه المسألة من زمن بعيد، فانتهى به الفكر إلى أن المراد بأولي الأمر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين، وهم الأمراء يعني الرؤساء والحكام والعلماء، وقادة الجيش.. وغيرهم ممن يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة.. فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا منّا، وألا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله ﷺ التي عرفت بالتواتر، وأن يكونوا







مختارين في بحوثهم لِمَا عرض عليهم، ومتفقين عليها، وأن يكون ما يتفقون عليه من المصالح العامة، وهو ما لأولي الأمر سلطة فيه، ووقوف عليه، وأما العبادات، وما كان من قبيل الاعتقاد الديني، فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد، بل هو مأخوذ من الله ورسوله وحسب، وليس لأحدٍ رأي فيه، إلا ما يكون في فهمه. فأهل الحل والعقد من المؤمنين إذا اجتمعوا على أمر من مصالح الأمة ليس فيه نص عن الشارع، مختارين في ذلك، غير مكرهين عليه بقوة أحد ولا نفوذه، فطاعتهم واجبة ويصح أن يقال: هم معصومون في هذا الإجماع ولذلك أطلق الأمر بطاعتهم.. نقلنا ذلك عن المنار بتصرف.

ويضيف الشيخ محمود شلتوت إلى ذلك حقيقة أخرى: «أن الإجماع الذي يعتبر دينًا من مصادر التشريع فيما لا نص فيه، هو اتفاق أهل النظر في المصالح، وهم رجال الشورى الذين تعرض عليهم الأحداث، ويتناولونها بالبحث، وتتفق آراؤهم فيها، وبما أن هذا الاتفاق لا يكون إلا أثرًا للبحث والنظر كان خاصًا بأهل البحث والنظر، ولا عبرة فيه بموافقة من ليس أهلًا للنظر ولا بمخالفته» ثم يقول:

«ويجوز للمجتهدين أنفسهم أو لمن أتى بعدهم، إذا تغيرت ظروف الإجماع الأول أن يعيدوا النظر في المسألة على ضوء الظروف الجديدة، وأن يقرروا ما يحقق المصلحة التي تقتضيها تلك الظروف ويكون الاتفاق الثاني إجماعًا منهيًا لأثر الإجماع الأول، ويصير هو الحجة التي ينبغي اتباعها: وإذا وجدت المصلحة فثم شرع الله».



إن الإِجماع بمعنييه معقول ! فأما بالنسبة إلى ما يستند إلى النصوص القاطعة فظاهر ، وما يحب الفكاكَ منه إلا الذي في قلبه مرض .

ونتوقف قليلًا عند الإِجماع بالمعنى الثاني ، إنه لا يوجد مجتمع بشري يحب أن يعرض مقرراته للعبث ما دام أولو الألباب قد انتهوا إليها .

فإِذا لاحظ أحد أن هناك تغيرًا في معنى المصلحة وفد به الزمان المتجدد ، دعا إلى النظر في الأمر ، وشرح ما لديه من دوافع إلى مراجعة الإِجماع السائد ، فإِن وافقه الآخرون فيها حلَّ إجماع مكان إجماع . . وإلا فلا يحل له أن يتصرف وحده ويشذ عن الجماعة .

إنني أود لو كُتب المصحف بالإِملاء لا بالرسم العثمانيٍ ، ولكني لا أبيح لنفسي نشر مصحف بهذا الإِملاء شاقًا الإِجماع السائد !

إذا أجمع أهل الذكر في الأمة على ترك الرسم القديم ، وإثبات الإِملاء الجديد فيها ، وإلا فكتابة المصحف باقية على ما هي عليه .

وقد أنكرتُ على أحدهم تغييره للتأريخ بالهجرة ، وجعله التأريخ ، يبدأ من وفاة الرسول ﷺ ! ! إن هذا تصرف عابث ، وخروج على إجماع محترم دون سبب واضح أو غامض ! !

وقد يتخيل البعض أن هناك إجماعًا على أمر ما ، وليس لخياله حظ من الواقع . . فإِجماع الأئمة الأربعة على حكم ما ، أو على فهم ما ، لا يسمَّى إجماعًا إذا كانت ثمت مذاهب





لصحابة أو تابعين أو مجتهدين آخرين.

وقد رأيت من يحتقر الفقه الظاهري، ويرى الإِجماعَ يتم بدونه، وهذا تصرف مستهجن، وقد رأيت لابن حزم آراء كان فيها أَوْلى بالحق من غيره، وأقوَمَ قيلا...

وألْفِتُ النظرَ إلى أن الخلاف العلمي يترجح بقوة الدليل لا بكثرة الأتباع.

وأن مقلدي الأئمة لا تحسب لهم أصوات مستقلة عند المناقشة وإحصاء الآراء. إن آراء المجتهدين هى التي توزن، ويكترث بها.

ثم إن التحقيق العلمي، غير الشهرة، فقد يذيع رأي يكون التحقيق ضده.

وأرى أن مواريث كثيرة في الفروع القائمة على الاستصلاح أو القياس أو ما يشبهها يمكن أن تراجع، وتصدر فيها أحكام جديدة.

ولنضع نصب أعيننا أن سطوة الحكام القدامى كانت وراء شيوع آراء ضعيفة، واستحيائها مع أنه كان يجب أن تدفن مكانها!!

ألا ترى أن الشورى -وهي أساس النظام السياسي في الإِسلام- عدها البعض من النوافل، وعدها آخرون تفضلًا من الحاكم، يعطيها بصوت شامخ وتقبلها الأمة بصوت خفيض! ومن سماسرة الفقه من لا يزال ينشر هذا السخف!!





٥٢- ما نظام الحكم في الإسلام؟ وهل الأمة مصدر السلطة فيه؟

عندما ظهر الإِسلام في العالم كانت هناك دول صغرى وكبرى، وأديان سماوية وأرضية، وفلسفات مزدهرة أو مدبرة، وشهوات فردية وجماعية، وهذه طبيعة المجتمع البشري من بداية التاريخ إلى عصرنا هذا مع تفاوت يسير.

وصاحب الوحي الخاتم كان يدري ما يفعل لما بدأ تبليغ الرسالة وبناء الأمة التي تحملها!

كان يدري أنه رحمة للعالمين، وأنه مكلف بإِسعاد الإِنسانية كلها، وإخراجها من الظلمات إلى النور.

وكان يدري أن الكتاب الذي يتلوه، والسنة التي ينشئها يتضمنان الأشفية التي تنقذ الأمم من أمراضها المزمنة!!

وأمراض العالم كثيرة، بيد أن الوثنية السياسية هي علة العلل؛ لأنها هي التي تحمي الوثنية الدينية، وتستبقي الخرافات والمظالم، وتمد حقها المزعوم على حساب ما لله من حقوق.

كنت أقرأ قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ ﴾

(إبراهيم: ٥)





قلت : كان بنو إسرائيل يعيشون في مصر ذات السماء المشرقة والأرض الضاحية فما الظلام الذي يخرجون منه ؟ إنه ظلام الاستبداد السياسي والفرعونية الحاكمة ، والاستضعاف الأثيم .

وفي صدر السورة يقول الله لنبيه محمد :

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾

(إبراهيم : ١)

إن الكتاب الجديد الذي يحمله النبي العربي العظيم ، يخرج الناس من الظلمات التي عاناها بنو إسرائيل من قبل ، كما يخرجهم من ظلمات الجاهلية المخيمة على كل قطر ، إنه يمحو الوثنيات الدينية والسياسية على سواء .

الناس يسجدون لإله واحد ، لا يسجدون لغيره ! ومشاعر الخوف والرجاء والرغبة والرهبة ترتبط قبل كل شيء وبعده بالخافض الرافع الضار النافع !

وكل تقليد سياسي أو اقتصادي يربط المشاعر السابقة ببشرٍ ما ، فهي ذرائع شرك وأسباب فساد ، ومحوها من الإصلاحات الأساسية للنظام الإسلامي .

ومعروف أن شبكة التشريعات الإسلامية تتناول الفرد من المهد إلى اللحد ، وتتناول الدولة من تنظيف الطرق إلى عقد المعاهدات ، والأمة الإسلامية بهذا المنهاج أمة رسالة تعمل بها وتدعو إليها ، وقد قال الله لنبيها :



﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

(النحل : ٨٩)

ومعنى هذا أن الحكم الإسلامي ليس دعوة إلى سيادة جنس من الأجناس، ولا هو محاولة لنشر فلسفة أرضية، ولا تعاون بين أفراد شعب ما، كي يعيشوا في مستوًى معين من الغذاء والكساء!

إنه دولةٌ تحمي عقيدة وتقيم شريعة، وكما يصلي الناس وراء إمامهم في المسجد، يعبدون الله، ولا يعبدون هذا الإمام - يمضي الناس وراء حاكمهم لإرضاء الله وإقامة دينه.

تلك هي السمة العامة لنظام الحكم الإسلامي، وللتفاصيل مكان يجيء بعدُ، والأمة الإسلامية -وقد بيَّنَّا وظيفتها- مصدر السلطات التي تنشأ بين ظهرانيها، أعني أنها وحدها صاحبة الحق في اختيار الرجال الذين يلون أمرها وفي محاسبتهم على ما يقومون به من أعمال، وفي ذَمِّهم أو الثناء عليهم، وفي معاقبتهم إن أساءوا، وفي عزلهم إذا شاءت.

وكلمة «مصدر السلطة» من مصطلحات العصر الحاضر، ونحن لا نهتم بالاسم وإنما نهتم بالحقيقة والمدلول، كما أننا نرفض التلاعب بالألفاظ.

إن المسلمين أثبتوا حقهم في اختيار الخليفة، أو رئيس الدولة، بعد وفاة الرسول مباشرة، وتبين من مسلكهم أنها بيعة حرة تعمد إلى أكفأ رجل فتقدمه وتراقبه، فإن صدق






ظنُّها في خدمتها وخدمة رسالتها كانت طاعته دينًا، وتوقيره تقوى، وإن صدَّق عليه إبليسُ ظنَّه فلا طاعة له ولا كرامة.

ولأي مسلم يأنس من نفسه القدرة على هذه الرياسة أن يرشح نفسه، وإذا آنس القدرة في شخص آخر رشحه، وعرض على الناس اسمه!

إن يوسف الصديق رشح نفسه لشئون المال، وقال للملك:

﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾

(يوسف: ٥٥)

ورشح خالد بن الوليد نفسه لقيادة المسلمين أول الاصطدام بالروم في معركة اليرموك؛ لأنه رأى نفسه أبصر بأسباب النصر، ورشح عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح الصحابي الكبير أبا بكر الصديق لرياسة الأمة وتمت مبايعته.

وما روي مخالفًا لما قلنا فله ملابساته الصحيحة.. إنَّ أبا ذر رضي الله عنه رغب في الإمارة ورشح نفسه لها، بيد أن النبي ﷺ أفهمه أنه ضعيف وأنه -مع تقواه- لا يقدر على أعبائها.

كما أن النبي ﷺ رفض ناسًا من عشاق الإمارة، طلبوا منه أن يعينهم في بعض المناصب.

إن المتطلعين إلى المناصب الكبيرة كثيرون، وكذلك الذين يحسنون الظن بمواهبهم!





والأمـة وحدها هـي التي تنتخـب من تتوسـم الخير على يديـه، وتراه أقـدر على مقاليد الحكـم، وأجمع لخلال القوة والأمانة.

ومن السـفه تصور أن الإِسـلام يُكرِه الجماهير على قبول حاكم لا يرضونه؛ لأنه منحدر من عائلة كذا!!

واتفق المسـلمون على تسـمية الدولة الإِسلامية الأولى: «بدولة الخلافة الراشـدة» كما اتفقوا على سلب صفة الرُّشْد عن حكومات الأسـر القوية أو العائلات الكبيرة التي هيمنت على التاريخ الإِسلامي فيما بعد.

لقد جاء في السنة النبوية أن الله لا يقبل صلاة رجل أمَّ قومًا وهم له كارهون!

والصـلاة عبـادة ميسـورة الأداء، يقـدر عليهـا الصالـح والماجن!

أمـا الرياسـة العظمـى للأمة الإِسـلامية، أو مـا قاربها من مناصب حساسة، فهي عبء هائل.

إنَّ الخلافـة نظـام بعيـد عـن الفرعونيـة، والكسـروية، والقيصريـة. والخليفـةً رجل تختـاره الأمـة -أي إنه برضاها جـاء- وتنظر فـي مبلغ وفائه لرسـالتها ودينها فتسـتبقيه ما وفَّى، وتستبعده إن عجز!

أو كمـا عبـر ابن حزم: «إنـه الإمام الذي تجـب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسـنة رسـوله، فإن زاغ عن شيء منهما مُنع مـن ذلك، وأقيـم عليه الحـد والحق، فـإن لم يؤمـن أذاه إلا



بخلعه، خُلِع ووُلِّي غيرُه».

وهذا هو ما نقصده بكلمة «الأمة مصدر السلطة»! يجرؤ أحد على إنكار ما نقرره هنا، وما نقرره هو ما تزعمه -إن صدقًا، وإن كذبًا- شتي الأنظمة الإنسانية الحديثة.

وقد رأيت بعض المتدينين قلقًا من هذه الكلمة، وربما أنكرها؟

لماذا؟! أحسنُ هؤلاء المنكرين حالًا من يقول: إن الكلمة تعطي الناس حق التحريم والتحليل وهو لله وحده!

وما ينكر مسلم أن هذا الحق لله وحده، ولكن ما علاقة هذا الحق المقرر لرب العالمين بمبدأ اختيار الأمة لحكامها وإخضاعهم لسيطرتها؟ لا علاقة!

فالأمة الإسلامية المؤمنة بكتاب ربها وسنة نبيها لن تخرج عنهما أبدًا، بل إنها هي التي تحاسب من يخرجون!

وهناك متدينون محصورون فيما ورثوا من ضروب الافتيات والتجاوز، للكلمات في آذانهم طنين غامض، وهم على استعدادٍ لاتباع أي حاكم، جاء من أي طريق!

ولو كان عن طرق المستعمرين! ما دام يقدم لهم الكلأ! هؤلاء لا دين لهم ولا دنيا!

وننظر في أول خطبة ألقاها أبو بكر بعد انتخابه أميرًا للأمة كلها: «أيها الناس، إني وليت عليكم ولست بخيركم! فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني!

الصدق أمانة، والكذب خيانة، الضعيف فيكم قوي عندي







حتى آخذ الحقَّ له إن شاء الله ! والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»..

تدبَّرْ هذه الكلمات، الخليفة المختار من الأمة يقول إنه منها، ويطلب عونها إن أحسن، وتقويمها إذا أساء.

ويتعهد بإعزاز الضعفاء -حتى يبقي لهم حقهم- وقمع الأقوياء، حتى لا يمرحوا في حقوق غيرهم.

ويختتم كلماته بأن طاعة الناس له مرهونة بطاعته لله ورسوله، أي بإقامته للكتاب والسنة وإلَّا سقطت طاعته.

أهناك اعتراف بسلطان الأمة ورقابتها أصرح من هذا الاعتراف؟ إنه ليس سلطانًا ينظر إلى الناس من أعلى، ويرتقب منهم أن يسارعوا إليه زلفى !

إنه رجل يطلب من الأمة أن تمنحه راتبًا يَطعَم منه هو وأهله !.

إنَّ على المسلمين أن يعرفوا دينهم، ومكانتهم، وإلَّا هلكوا بالأوضاع التي ورثوها وألفوها !





٥٣- ما المعالم الأولى للدولة الإسلامية؟

الناس ترهب الحكم الديني لأمرين: الأول أنه قد يحرج مخالفيه في العقيدة، ويضيق عليهم الخناق، ويعدهم - بلغة العصر - مواطنين من الدرجة الثانية!

وهذا التصرف منفي نفيًا تامًا في الدولة الإسلامية، إذ إن الإسلام يجعل المواطنين المخالفين في المعتقد في ذمته وعهده وشرفه! يوفر لهم الحماية المادية والأدبية على نحو لم تعرفه ولن تعرفه دولة أخرى.

وهذا سر بقاء الطوائف الدينية المخالفة بين ظهراني المسلمين دون حرج أو عنت، على حين فنيت القلة الإسلامية أو اعتلت تحت سلطان العقائد الأخرى.

والمحذور الثاني من الحكم الديني أن الخليفة، أو الرئيس يمنح ميزات روحية وغيبية غامضة، وكأنه ممثل لله على ظهر الأرض، فله ما يشبه القداسة أو العصمة!

وهذا المعنى منكور ومرفوض في الدولة الإسلامية، فالحاكم واحد من الناس، غير أنه أثقلهم حملًا، وأشدهم مسئولية، وهو يخطئ وينتظر التصويب من غيره، ويضعف وحده إلا أن يقوى بمظاهريه من أولى الألباب وذوي الغيرة.

وقد رأينا في الخلافة الراشدة كيف يقترب الخليفة من الناس ويلتمس النصح والعون، وكيف ينفر من مظاهر العظمة الفارغة، ويرى الخيلاء جريمة، والتواضع تقوى.

وأول معالم الدولة الإسلامية الشورى، وطلب الصواب





عند أهلـه، والانصياع للحق إذا ظهر وتوفير الجو الذي يحق الحق ويبطل الباطل.

والشـورى خلق إنسـاني رفيـع، محمود فـي المجتمعات قديمهـا وحديثها، ومعروف في نظم الحكـم من قديم، وإن خرج عليه كثيرون، وتمرد عليه مستبدون.

يقـول الحسـن: الناس ثلاثـة: رجل رجـل، ورجل نصف رجـل، ورجل لا رجل! فالرجـل الرجل من له رأي ومشـورة، والرجـل نصف الرجل من له رأي ولا مشـورة له، والثالث من لا رأي له ولا مشورة!

روى البغوي عن عائشة قالت: ما رأيت رجلاً أكثر استشارة للرجال من رسـول الله ﷺ! وهو بداهة إنما يستشـيرهم في شئون الدنيا، والمصالح العامة، مما لم ينزل فيه وحي.

وقد استشـار المسلمين في معارك بدر، وأحد، والخندق، ونزل على رأيهم.

وروى أحمـد بن حنبل في مسـنده أن رسـول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما».

وروى ابن بردويه عن علي بن أبي طالب: سـئل رسول الله ﷺ عن العزم - يعني قوله تعالى:

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

فقال: «مشـاورة أهل الـرأي ثم اتباعهـم»!! والغريب أن أحد المفسـرين شـرح الآية فقال: تستشـير ثم تمضي على الأرشـد لا على الشـورى، أي تخالـف الشـورى وتتبع رأيك






أنت، ويخيل إلي أن عصا حاكم مستبد كانت فوق رأس هذا المفسر المضطرب، فقال لإرضاء الحاكم ما قال!!

إن الله تبارك وتعالى وصف المسلمين بهذه الكلمة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

(الشورى: ٣٨)

وهو قول فصل، ليس بالهزل! فكيف يجيء أحد بعد ذلك ليقول: يمضي الحاكم على رأيه متجاهلًا ثمرة الشورى، فلِمَ كان طلبها من قبل؟

ثم إن تنفيذ المبادئ المقررة يتخذ على امتداد الزمان شتى الصور، فالعلم فريضة، وتطوع الناس بطلبه في بعض المساجد أو المدارس كان الصورة المألوفة في مجتمع ساذج، أما اليوم فقد جندت الأجيال له، ونسقت مراحله ومعاهده، ويستحيل ترك التعليم للتطوع الفردي!

والجهاد فريضة، وكانت صيحة شجاعة تجمع الشبان والشيب للانطلاق إلى ميادينه وخوض معاركه، فهل تفعل الأمم ذلك الآن؟ أم تجعل للجيش كيانًا دائمًا، وتجعل للالتحاق به سنًا معينة، وترصد لتدريبه وتموينه وتسليحه الألوف المؤلفة؟

كذلك الشورى إنها مبدأ مقرر، وفريضة محكمة، ولابد من إنشاء أجهزتها، وإمدادها بأنواع الخبرة، وتنظيم إشرافها على شئون الدولة، وتمكينها من تقليم أظافر الاستبداد الفردي، وضمان مصالح الجماهير!

ومحاولة استبقاء الشورى فكرة ساذجة، أو جعلها نافلة





عارضة، كذب على الدين وخيانة له، ورغبة في إرضاء حاكم متسلط على حساب الإسلام وأمته، ولم يخل جيل من أناس يبيعون دينهم بعرض من الدنيا، وقديمًا قال شاعر دجال، لحاكم مستبد:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار!!

كيف يقال هذا، مع قولِ رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشيرة إلا يؤتى به مغلولًا يوم القيامة حتى يفكه العدل، أو يوبقه الجور». (السنن الكبرى للبيهقي).

إن واحدًا من الخلفاء الراشدين لا يمدح بهذه الكلمات الحمقاء، فكيف بغيرهم؟

ومن الذي أعطى الحاكم مهما علا شأنه حق الاعتراض على رأي الجماعة أو رأي الكثرة، فإذا رفع يده رافضًا سكت الناطق، وحم القضاء؟ وما قيمة

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

مع هذا الحق؟

إن أجهزة الشورى المنظمة، المحترمة الملزمة هي التي تحفظ حدود الله، وهي التي تأخذ على أيدي الظلمة وتقي الأمة شرهم، وتنفذ قول الرسول الكريم «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه». (أخرجه الترمذي، وأبو داود)

وقد حكم التاريخَ الإسلامي قريبٌ من مئة خليفة من بضع أسر تعد على أصابع اليد! أكدت سيرتهم حاجة المسلمين





الماسة إلى أدق أجهزة الشورى، وأشدها محاسبة لولاة الأمور.

ومن معالم الدولة في الإسلام حفاظها الشديد على حقوق الإنسان المادية والأدبية، وتوفير الأمن للأفراد والجماعات، والترهيب من إيذاء أحد أو ترويعه! وجعل الدماء والأموال والأعراض في مثل حرمة البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام أو أشد!.. وإقرار العدل مع المؤيد والمعارض والقريب والغريب والغني والفقير، وتهديد الأمة جمعاء بالهلاك إن هي تبعت الهوى، واستمرأت الفساد ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود: ١١٧)

ولما كانت للسلطة ضراوة كضراوة الخمر، فإن النبي عليه الصلاة والسلام حذر الحكام من الميل مع الهوى فقال: «صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، وكل غال مارق» (رواه الطبراني في الكبير) والغلول الاختلاس من المال العام.

والغريب أن الفساد السياسي والاستغلال الشخصي لا يفترقان، فقلما تجد مستبدًا إلا سارقًا لمال الأمة، متخوضًا فيه بغير حق، هو وأقاربه وأتباعه!!

ومن هنا نفهم ما رواه ابن عباس أن رسول الله بعث معاذًا إلى اليمن - أميرًا عليها - وقال له: «اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». (رواه البخاري ومسلم).

ويستوي أن يكون المظلوم مسلمًا أو غير مسلم كما جاء





الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

ذلك مصرحًا به في روايات أخرى.

ولممالأة الحاكم إغراء! وكما يتساقط الذباب على الحلوى، يتهاوى الطامعون عند أصحاب السلطة، ولا يحتاج ذلك إلى دليل! وقد نبه النبي ﷺ إلى عواقب هذه المسالك، فقال: «ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم! ولكن من رضي وتابع...» (رواه مسلم في صحيحه)

ولعل ذلك سر الخصومة الممتدة بين أئمة الفقه الإسلامي وبين جمهرة الحكام الذين تسموا خلفاء، وهم ملوك من شرار الملوك!!

وقد كانت جماهير الأمة تعرف عدالة الفقيه بقدر قربه أو بعده من باب السلطان...!.

أما رئيس الدولة - أو الخليفة الصالح - الوفي للأمة ورسالتها فإن محبته عبادة، وتوقيره دين، وتأييده واجب على جمهور المؤمنين! أليس الساهر على مصالحهم الناهض بأعبائهم؟ أليس الحامل للراية القائد للجهاد؟

لقد جاء في السنن أنه أول السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله!!.. كما جاء عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة إمام عادل رفيق، وشر عباد الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خَرِق» - أحمق! (رواه البيهقي في الشعب).



٥٤ - ما مدى تقبل الإسلام لأسس الدولة الحديثة؟

أجدني بحاجة إلى توكيد أنه لا فرق بين مقتضيات الفطرة السليمة، وتعاليم الدين الحنيف!

إنني أحيانًا أصحح بعض الأفكار الدينية المائلة على ضوء سلامة الفطرة، كما أصحح بعض المسالك التي يزعم الإنسانيون سلامتها على ضوء الوحي المعصوم.

وقد بحثت عن المقصود بأسس الدولة الحديثة بعدما ذكرت أن الحكم عندنا يقوم على الاختيار الحر، وأن الشورى تلزم الحاكم، ماذا بقي؟

قالوا: بقيت أمور نعرضها واحدًا واحدًا! هل يقبل الإسلام أن يختار الخليفة لأجل محدود؟

قلت: ليس هناك نص يمنع، فإذا وجدت الأمة أن ذلك أحفظ لمصالحها، وأصون لحرياتها، وأبعد عن إساءة السلطة، وأدعى إلى تواضع الحاكم، فلا حرج عليها في تقريره!

قد تقول: إن ذلك لم يعرف في تاريخ المسلمين الطويل! وتجيب بأن تاريخ الخلافة غير الراشدة ليس أسوة، بل قد يكون مثار لوم ومؤاخذة لذويه!

أما تاريخ الخلافة الراشدة فإن اختيار الخليفة فيه لم يتخذ نهجا واحدًا، فأبو بكر - رضي الله عنه- انتخبه أهل الحل والعقد انتخابًا مباشرًا، وعمر عهد إليه الخليفة القائم بعد





مشـورة عامة، وذلك للظروف التي كانت تمر بالدولة، فهي مشـتبكة في قتـال ضار مع الـروم والفرس جميعًـا ، وعثمان اختير من بين سـتة عينهم عمر ، ثم أقبل الناس يبايعونه حتى تم استخلافه .

وعلـيٌّ بايعته الجماهيـر بعد مقتل عثمـان مبايعة حرة لا ثغرة فيها !

وهـذا الأسـلوب المتجدد يشـير إلـى جواز كل مـا يمنع الاسـتبداد الفـردي، مهما اختلفت صوره، ولا يجرؤ مسـلم علـى تحريم تصرف لم يجئ في تحريمه نص، من الكتاب أو السـنة، أو القياس الجلي، أو الفوائد المجربة، بل الذي يقال هنا : (إذا وجدت المصلحة فثم شرع الله) !

وعندمـا نراجـع تاريخ الخلافـة غير الراشـدة، وجنايتها الشـديدة علـى الإسـلام نميـل إلـى توقيـت زمـن الخليفة، وتعريضه لانتخاب عام بين الحين والحين.

ولا يخدش هذا الحكم أن الأجانب سبقونا إليه في معالجة الاسـتبداد السياسـي الذي أصيبوا به، ونجوا من عقابيله وما نجونا[١] !

قـال صاحبي : يمكن القـول بأن تقييد زمن الخليفة مسـألة لا يأمر الإسـلام بها ولا ينهى عنها ! فما رأي الإسـلام في وجود أحزاب سياسـية تسعى للحكم وتسـتكمل له أهبته وهي بعيدة

(١) العقبول: البثرة تنشأ فى الشفتين من الحمى والعقابيل فى قولهم نجى من عقابيل فلان معناها شره ومكره. (المجلة)





عنه، وتقوم بقيادة المعارضة الشعبية، إذا جَدّ ما يستدعي ذلك؟

قلت: هي كسابقتها، لا يوجبها الدين ولا يحرمها.

إن تكوّن المذاهب الكثيرة، واختلاف وجهات النظر، أثر طبيعي للحرية الفكرية التي وفرها الإسلام لأتباعه، وعرفها الناس بعد صراع مرير مع الجبابرة والأدعياء... وإيغال الحكم الفردي في الاستئثار بكل شيء هو الذي حظر على الناس حقًا طبيعيًا لهم كان يمكن أن يمارسوه في سلام وسماحة!

قال: كيف يسمح الإسلام بمعارضة لولي الأمر؟

قلت: إن المعارضة في نطاق الشورى، وطلب الحقيقة واحترام حق الكثرة، لا شيء فيها، وهذه المعارضة تقع في تفصيلات تشريعية واجتماعية ليس لأحد أن يفرض رأيه فيها بالعنف، سواء كان حاكمًا أو محكومًا، ولنضرب لك الأمثال!

هب أن جماعة من الناس تخيرت من مذاهب الفقه الإسلامي أن تؤخذ الزكاة من جميع الزروع والثمار، وأن تبقى المناجم ملكًا لأصحابها على أن يؤخذ منها الخمس، وأن يسوى بين دية الرجل والمرأة، وأن تباشر المرأة عقد زواجها، وأن تقبل شهادتها في الدماء والأعراض كما تقبل في الأموال، وأن يقبل التفاضل فيما وراء الأصناف الستة... إلخ

لقد ذكرتُ طوفان الخلاف الفقهي الذي يختبئ وراءه الغوغاء.

وهناك ما يساويه في الخطورة، هب أن جماعة من الناس رأت أن تضع منهجًا لتصنيع البلاد، في بيئة زراعية،





أو لاتحادها مع غيرها في أقاليم منفصلة أو لإنشاء سوق إسلامية مشتركة، أو لتطوير أساليب عرض الإسلام، مستغلة في ذلك إمكانات الحكم، فما الذي يمنع من إنشاء حزب ما، لتحقيق ذلك؟ سواء ضاق به الخليفة أو رضي!

أيكون ذلك نقضًا للبيعة وخروجًا على الجماعة؟ لا هذا ولا ذاك؛ لأن الأمة ستقول كلمتها، وسترفض ما تراه خطأ، وتقر ما تراه صوابًا، ومن فاز بثقتها اليوم يمكن أن يُحْرَم منها غدًا، مع نجاح المعارضين في كسب الرأي العام.

قلت وما زلت أقول: إن مبادئ الإسلام معصومة، أما الذين حكموا باسم الإسلام، وهم عشرات الخلفاء من ثلاث أو أربع عائلات، فأمرهم فُرُط(١)، ونريد إنصاف الإسلام منهم، وحماية حاضره ومستقبله من لوثتهم.

لقد سقطت هذه الخلافة على أيدي التتار في القرن السابع الهجري، ثم سقطت الخلافة مرة أخرى على أيدي الصليبيين في القرن الرابع عشر الهجري.

الأولى كانت حكرًا على أولاد العباس! والثانية كانت حكرًا على أولاد عثمان، وهو من وجهاء الأناضول في القرن الثامن! هل هذا الوضع هو الذي يستبقيه الإسلام، ومن أجله يرفض تقييد مدة الحاكم، ويرفضُ وجود الأحزاب السياسية؟!

---

(١) يقولون فلان أمره فُرُط أي بعيد كل البعد عن الصواب.





٥٥- كيف يقيم المسلمون دولة إسلامية واحدة؟

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

هذه الآية أدل شيء على صفة أمتنا وفحوى رسالتها، إنها أمة أورثها الله كتابه وأوصاها أن تعمل به وتدعو إليه، وأن تجعل وجودها المادي والأدبي مربوطًا بحقائق الوحي الأعلى، وترجمة عملية لمراد الله من خلقه:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾

(الحج: ٤١)

وقد بقيت علاقة الأمة المصطفاة قائمة برسالتها تلك على تفاوت مثير، أحيانًا تقوى فلا يعجزها شيء! وأحيانا تهين فيغلبها الذر!!

ومع التأمل في التاريخ الإسلامي أستطيع القول: إن بقاء المسلمين إلى يوم الناس هذا يرجع قبل كل شيء إلى حفظ الله تبارك اسمه! ثم إلى وفاء الجماهير العميق لدينها ثم إلى جهاد الفقهاء والدعاة والمربين!

أما التاريخ السياسي فركام من الأقذاء نما على مر الأيام وبلغ ذروته في هذه السنين العجاف!



وإن كان يظهر بين الحين والحين خليفة أو ملك يمسح القذى، ويمهد الطريق ويكبت العدو ! !

لقد شقت الأمة طريقها بقوة على عهد الخلافة الراشدة، وكانت الجماهير والحكام جسدًا وروحًا لا فكاك بينها.

ثم اضطربت أجهزة الحكم العليا، ودخلها خلل مزعج أيام الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية، ومع ذلك رأى جمهرة العلماء والدعاة أن يبقوا الأمة موحدة الصف والهدف وراء أولئك الحكام، فكان المسلمون أمة واحدة وخلافة واحدة تقريبا.

ثم نبتت إلى جوار الجذع الغليظ سيقان أخرى ما لبثت أن اشتدت وتحولت إلى جذوع قوية، ومن هنا قامت دول إسلامية شتى، فشاعت الفرقة والضعف !

والحق أن مأساة الإسلام الأولى لم تجئ من كثرة حكوماته قدر ما جاءت من تفاهة الحاكمين وندرة مواهبهم، وسقوط منصب الخلافة بين أناس لا يصلحون لإدارة قرية صغيرة ! !

ولا بد من كيان سياسي وثقافي موحد للمسلمين، حتى يستطيعوا أداء رسالتهم والقيام بحق الله عليهم، إلى جانب ما هو معروف من أن الإخاء الديني بين المسلمين، يسبق أخوة النسب، وأن الولاء للمعتقد فوق الولاء للنزعات العرقية والأرضية !

وقد يظن ظان أن هذا ضرب من الغلو ! لكني بعدما درست التاريخ الدولي للعلاقات بين المسلمين وغيرهم شعرت بأن هذا الترابط الإسلامي ضرورة حياة، ونداء البقاء بين ملل ونحل تنظر إلى المسلمين بكره، وتود لهم العنت،






بـل الضيـاع ! ولا تـزال الضغائن الأولـى تتوارثهـا الأجيال ، وتزيد جذوتها وهجًا ، حتى مطالع هذا القرن الخامس عشر ، فمـع عمـق الفجوة بيـن الهندوكيـة والشيـوعية والصليبية واليهودية ، رأيت الكل يعالجون الوجود الإسلامي بالقتل .

المذابـح الطائفية فـي الهنـد ، والحـرب الكيمياوية في أفغانسـتان ، ومجـازر صبرا وشـاتيلا في لبنان ، ودير ياسـين في فلسـطين المحتلة ، إنها النقمة على الإسـلام وأمته حيث كانت ، قاسم مشترك يجمع بين الأضداد على اختلاف الزمان والمكان ، ويغريهـم بانتهاز فرصة الضعف السـائد للإجهاز على هذا الدين إلى الأبد .

فهـل يلام المسـلمون إذا فكروا في وحدتهـم وخلافتهم بعدمـا فشـلت النزعات العالميـة والصيحات الإنسـانية في حقن دمائهم وحفظ حقوقهم ؟

وسؤال آخر ؟ مَن مِن الوثنيين وأهل الكتاب نسي عقيدته ، أو أصم أذنه عن ندائها ؟ حتى يقال للمسلمين : انسوا ما لديكم ! !

إن التحالف المكتوب وغير المكتوب ضد الإسلام يجعل الإنسان يهتف بين الحين والحين بالبيت المشهور

كـل يـوم تـبـدي صـروف الـليـال
خـلـقـا مـن أبـي سـعـيد عـجـيـبا ! !

فلنقم للإسلام دولته الجامعة ولتعد إليه خلافته الضائعة ، وليتعلم المسـلمون مـن أخطائهم الماضيـة كيف يحترمون الصواب ويلتزمونه .





سمعت من يقول : كيف يمكن حشد المسلمين في دولة واحدة، وتحت راية واحدة، وهم ألوف مؤلفة موزعون على أقطار فيحاء؟

قلت : إن المسلمين يبلغون ألف مليون نسمة، وقد قامت للصين دولة وهي مثل ذلك العدد.. فإن قلت : إن الصينيين على أرض واحدة، ومساحة مشتركة.

قلت : إن الاتحاد السوفيتي قدر على بناء دولة واحدة فوق أرض تأخذ نصف أوروبا، ومثل ذلك من آسيا مع تعدد الأجناس واللغات!!

إنه لا توجد عوائق مادية تمنع قيام دولة واحدة للمسلمين، بل إن هذه الدولة ظلت قائمة أكثر من ثلاثة عشر قرنا، ما يخرج عن نطاقها إلا عدد محدود، يرنو إليها ويستظل من بعيد بحمايتها.

إن العوائق دون هذه الدولة نفسية، ومعنوية، واستعمارية، وهي ترجع إلى المسلمين قبل أن ترجع إلى خصومهم.

إن البعد عن الإسلام، والموت الأدبي الرهيب الذي حاق بشعوبه كانا من وراء سقوط الخلافة، واقتسام الأقوياء لتراثها.

ومن هنا نؤكد أن عودة الدولة الإسلامية الواحدة تحتاج إلى تمهيد واسع، يعيد المسلمين أولًا إلى دينهم الحق، ويملأ أفئدتهم وألبابهم برسالته وعقائده وشرائعه وفضائله، كما تحتاج إلى بصر حاد بأخطاء الماضي وأسباب الانهيار حتى يمكن تجنبها، بلباقة ومقدرة، فتبنى الدولة الجديدة






على قواعد لا تنال منها الأيام.

وغني عن البيان أن هذه الدولة الجديدة، ليست مركزية، إنها مجموعة من الأقطار أو الولايات لها حكوماتها المحلية، ومجالس شوراها، وضرائبها، وشخصيتها المعنوية، يتكون منها بعد ذلك، كيان الدولة الكبرى ويوجد بعاصمتها الخليفة بسلطاته العامة.

ويستطيع الأخصائيون وضع القالب القانوني لهذا البنيان السياسي، ولا حرج عليهم أن يقتبسوا من الأنظمة المطبقة في دولة مشابهة بعد إشرابها روح الإسلام..

إن العصر الحاضر ليس عصر الدويلات المنثورة، إنه عصر التكتلات الكبيرة القادرة على الحياة والمقاومة الذاتية!

إن العالم الإسلامي ضم أجناسًا كثيرة، من عرب وفرس وترك وهنود وزنوج... إلخ وهي أجناس سعدت بهذا الدين، وأرضت به ربها، وحققت به وجودها ولكنا نقول بصراحة وصرامة: الإسلام استفاد سياسيًا وثقافيًا من فضائل هذه الأجناس، كما نُكب ثقافيا وسياسيا من معايبها الأخرى!!

ولما كنت عربيا مسلما فإني سوف أتحدث عن بني قومي وأتحدث إليهم.. ما هذه العروبة التي اخترعوها، وكابروا بها الإسلام، وحسموا الولاء لها، وجعلوا قوميتها فوق الدين، وبعثها بعيدًا عن هداه؟

هل العرب بلا إسلام يصلحون لشيء؟ أو يقدمون للإنسانية أي شيء؟





تفرست في وجوه العروبيين الجدد ورابني منهم ضغن على محمد -وهو أعلى قمة في التاريخ- واستهانة بصحبه، وبما حملوا للعالم من وحي! أكان مطلوبا من هؤلاء الأصحاب ألا يبلغوا القرآن؟ وأن يتلوا على مسامع الناس هراء عمرو بن كلثوم:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما
تخر له الجبابر ساجدينا!

لماذا أيها الأبله؟! لا حياة للعرب، ولا شرف، إلا بالعودة إلى سيرة أجدادهم الأقدمين، والإخلاص للإسلام عقيدة وشريعة، واستبطان أدبه، والتزام هدفه، والاستقامة على صراطه المستقيم.

أما أن يعود البعض إلى قبر مسيلمة، يناشده العودة إلى الحياة، ويطلب منه قيادة صحوة عربية جديدة، فهو لا يألو أمته إلا خبالا، ولن يزيد العالم إلا سخرية بها.

ولما ترك العرب تقاليد الإسلام السياسية، وتقوى الخلافة الراشدة، وسلوك الفقهاء الكبار، ماذا صنعوا؟

استحيوا تقاليد المفاخرة والمنافرة، والهجاء بالآباء، واسترخاص الدماء، إن الشعوب في أرجاء الدنيا تتنفس بحرية، وتعترض حكامها في طمأنينة وثقة، وتهتف ضدهم إذا شاءت.

إنه لن تقوم دولة الإسلام الكبرى إلا إذا تأسى العرب بسلفهم الأول، وإلا ذهب الله بهم وأتى بخير منهم.





٥٦- يوجل الناس من الحكم الديني، وعودة الخلافة! فهل هناك ما يدفع هذا الوجل؟

عندما يتخذ التعصب الديني قناعًا له من الحرية الفكرية فإن الأمر يستحق كل ازدراء، ومن حق المسلمين أن يسألوا: لماذا نالت (إسرائيل) الرضا التام بوجودها وهي تقوم على أساس يهودي صرف؟ وترسم حدودها وفق مخططات التوراة؟

إن الشرق والغرب كليهما اعترفا بحقها في الحياة، بل لم يعترفا بحق العرب في (بقاء جزئي) إلا بعد الاعتراف بهذه الدولة الدينية؟

لماذا قامت (للفاتيكان) دولة توجه أغلب نصارى العالم وتملك القوة الاقتصادية الثالثة - بعد أمريكا وروسيا - وتضع سياستها الرتيبة لتنصير الشعوب الأخرى، وفي طليعتها المسلمون؟

إن الحرب الصليبية التي شنها قياصرة (روسيا) لم تدع الشيوعيةُ ثمراتها، بل ضمت إلى الأقطار الإسلامية المفتوحة (أفغانستان)!

والحرب الصليبية التي شنتها الدول الغربية تركت في الكيان الإسلامي نزيفًا طائفيًا وثقافيًا يوشك أن يقضي عليه!

فإذا تحرك المسلمون ليحموا كيانهم، ويجددوا دولتهم قيل لهم: يجب أن يبتعد الإسلام عن السياسة، فنحن نوجل





من الحكم الديني ! ! ومن عودة الخلافة الإسلامية ! الحق أن هذه صفاقة مستغربة !

إن الذي نوجل منه، ويَوْجَلُ منه كل عاقل ! هو عودة الاستبداد السياسي ! أو تولي رجل الحكم وهو يزعم أنه ذو صلة خاصة بالله، أو أن الروح القدس حل فيه ويتعاون معه ! !

والخلافة الراشدة بريئة من هذا الجنون المقدس، وتصريحات رجالها واحدًا واحدًا، نتمنى لو يقولها اليوم أعظم رجال (الديموقراطية) المعاصرين.

ألم يقل أبو بكر : إن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني ؟ وعندما يلي الأمر يقول : أيها الناس كنت أحترف لعيالي (أكسب قوتهم) فأنا اليوم أحترف لكم، فافرضوا لي من بيت مالكم !

ويجيء بعد أبي بكر عمر ليقول للناس في المسجد الجامع : إذا وجدتم فيّ اعوجاجًا فقوموه، فيُسمع من بين الصفوف صوت يقول : لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا ! فيكون جواب عمر : الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوِّم اعوجاج عمر بسيفه !

وفي رواية أن عمر خطب فقال : يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا هكذا ؟ فشق الصفوف رجل يقول وهو يلوح بذراعيه كأنهما حسام ممشوق : إذن نقول بالسيف هكذا.

فسأله عمر : إياي تعني ؟ فيجيب الرجل : نعم إياك أعني





بقولي ! فيرد عمر : رحمك الله ، الحمد لله الذي جعل فيكم من يقوِّم عوجي .

ويجيء دور عثمان ، الخليفة النبيل المظلوم ، الذي يقول للناس : «إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في القيود فضعوهما» .

وقد كان عثمان قديرًا على استصراخ عشيرته ، وإعمال السيف في محاصريه لكن الرجل الحيي الرقيق قَبِل أن يموت دون أن يستبيح قطرة دم لمسلم ! ! .

ويتولى عليّ الخلافة فيقول : إنما أنا رجل منكم لي ما لكم وعليَّ ما عليكم ! ويقول : ليس لي أمر دونكم ويقول لصاحبه : إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة - سواء .

ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ميراثًا من أجداده بني أمية كره الرجل الكبير هذا الوضع الذي يرفضه الإسلام ، وخرج إلى المسجد الجامع يقول للناس : لقد ابتليت بهذا الأمر على غير رأي مني ، وعلى غير مشورة من المسلمين ، وإني أخلع بيعة من بايعني ، فاختاروا لأنفسكم !

فردت الجماهير بصوت واحد : بلى إياك نختار يا أمير المؤمنين . . .

هذه هي الخلافة الراشدة ، التي أمرنا أن نستمسك بسنتها ، أترى واحدًا من رجالها يعرف الحق الإلهي للملوك ؟ أو يظن نفسه فوق الأمة قيد إصبع ؟

والداهية الدهياء في عصرنا هذا متحدثون عن الإسلام لا





فقه لهم في الدين، ولا بصر لهم بتاريخ المسلمين يصورون الحكم الإسلامي تصويرًا منكرًا، ويقررون أحكامًا ما أنزل الله بها من سلطان، يقولون: الحكم المسلم لا تقيده الشورى، ولا يسمح بأحزاب معارضة، ولا يعترف بمبدأ الانتخاب، وحق الكثرة في فرض نفسها!!

إنهم يدافعون عن الفرعونية والهرقلية، ويؤيدون الحجاج والسفاح وكل مفتات على الأمة.. إنهم ناس يستمدون فقههم كله من تاريخ الخلافة غير الراشدة، والملوك الذين حكموا الإسلام ولم يحكمهم الإسلام.

وهم بفكرهم وسلوكهم امتداد لزاوية الانحراف الثقافي والسياسي في التاريخ القريب والبعيد، وبعضهم له إخلاص الدبة التي قتلت صاحبها، وللبعض الآخر باع طويل في الارتزاق والأكل على موائد الحاكمين!!

علماء الدين عندنا يقولون في الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ: إن الراوي الثقة إذا خالف من هو أوثق منه عد حديثه شاذًا ورفض، وإذا كان الراوي ضعيفًا، ونقل ما يخالف الصحاح عُدَّ حديثه منكرًا أو متروكًا ورفض!

فما نقول في ناس يرسمون صورة الإسلام من أحاديث شاذة أو منكرة أو متروكة؟ وفي أي مجال؟ في ميدان الحكم.

روى المحدثون عندنا هذا الحديث الضعيف، نذكر نصه ثم نعلق عليه! رووا بصيغة التمريض أن النبي ﷺ قال: «السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه كل مظلوم من عباده،






فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر، وعلى الرعية الصبر».

هذا الحديث الضعيف مخالف لسنن صحيحة كثيرة منها «لتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنَّه على الحق أطرا[١]، ولتقْصُرنَّه على الحق قصرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم». (الترمذي وابن ماجه)

ومنها أحاديث تغيير المنكر بمراتبه الثلاث..

وظاهر الحديث الضعيف مرفوض من ناحيتي الشكل والموضوع، وهو إما منكر أو متروك! ومع ذلك نقلَه وروَّج له بعضُ المرتزقة من المتحدثين عن الإسلام.

ونسارع إلى القول بأن الأخذ على يد الظالم ليس باغتياله، بعد محاكمة فردية له من بعض الناس.

التصرف الإسلامي الوحيد هو مد رواق الحكم الشوري والمعارضة الحرة، فمن رأى من الحاكم عوجًا حدَّث الناس عنه، وشرح للرأي العام موقفه، فإن أيده الناس أسقطوه في انتخاب صحيح، وجاءوا بخير منه.

قال لي غلام ساذج: إنك تعترف بالنظام الانتخابي، وتقرر رأي الكثرة مع أن القرآن ذم الكثرة في مواضع كثيرة! قلت: أي كثرة تلك التي ذمها القرآن؟ إذا قال الله تعالى:

(١) أطرا العود عطفه وحناه، وتأطرونه على الحق أطرا معنى يجبرون عليه .(المجلة)





﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (غافر : ٥٩)

أو قال في آية أخرى :

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر : ٥٧)

كأن معنى النظم القرآني الكريم، أن أغلب المسلمين منافقون وجهال ؟

قبح الله فهمكم ! إن النبي ﷺ كان يرى في معركة أُحد استدراج المشركين إلى داخل المدينة، والقضاء عليهم في حرب شوارع ! بيد أن الكثرة من أصحابه أبت إلا الخروج إليهم في العراء، فنزل على رأيهم وهو كاره، فلما رأوا أنهم أكرهوه على الخروج عرضوا عليه أن ينفذوا خطته، فأبى !

فهل كانت كثرة الأصحاب جاهلة، أو غير مؤمنة ؟

كان عليه الصلاة والسلام - كثيرًا ما يقول : «أشيروا علىّ أيها الناس !» فهل حاكمكم الذي ترون ألا تقيده الشورى، وألا يلتفت إلى الكثرة، أرشد من صاحب الرسالة العظمى وأعقل ؟

إن غباءكم في فهم القرآن والسنة لا يستفيد منه إلا أعداء الإسلام، وعشاق الفرعنة من الحكام !

عندما نطلب عودة الخلافة الإسلامية، وقيام حكم للكتاب والسنة، فنحن نرنو إلى المبادئ الشريفة التي وعاها عهد الخلافة الراشدة، ونريد تجنب أخطاء السلاطين، والانتفاع بكل جهد إنساني للخلاص من الاستبداد والمستبدين.







٥٧ - متى تقام الحدود؟ وهل هي صالحة لكل عصر؟



الإنسان ليس ملاكًا معصومًا، ومن ثم لا نستغرب وقوع الخطأ منه، وإذا أخطأ فلا ينبغي أن نبادر إلى قمعه بوحشية، وإظلام حاضره ومستقبله.

والشارع الأعظم يعلم هذه الطبيعة البشرية، ويمهد لها طريق التوبة والتسامي

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾.

(النساء: ٢٧، ٢٨)

هذه حقيقة لا ريب فيها، وهناك حقيقة أخرى لا ننساها..
إن كل امرئ يجب أن يعيش آمنًا في سربه، وافرًا في دمه وماله وعرضه، وإن انحرافات المخطئين لا يجوز أن تتحول إلى وباء يعصف بالأمن ويجتاح الحرمات!

والإسلام عندما يضع عقوبة لخطيئة ينظر إلى هاتين الحقيقتين.
قد يعذر العاصي ويلتمس له الدواء! ولكنه لا يأذن أبدًا للجريمة أن تعكر الصفو، وتنشر الخوف.

من أجل ذلك وضع الحدود، ودرأها بالشبهات، ووقفها بالتوبة إذا رأى القاضي أن من تورط فيها ثائر على نفسه، نادم على سقطته، وأن عودته إليها مستبعدة، وأن مستقبله هو الصلاح والاستقامة.





إن النبي ﷺ حاول أن يثني ماعزا - غفر الله لنا وله - عن اعترافه، ورأى أن توبته تطهره، ولكن الرجل كان مهتاج الأعصاب لما بدر منه، وأراد أن يطهر نفسه بالرجم فتركه النبي الكريم وما يريد!

على حين أذن لمن صلى معه، أن ينصرف بما اقترف، فقد طهرته صلاته أو اعتُبرت توبة له.

لكن إذا اضطرب حبل الأمن، أو رأى القاضي أن المذنب قاس مخوف الغدر، فإن الحفاظ على المجتمع، ومؤاخذة المجرم الجسور توجبان الضرب على يده وحماية الناس من شره.

إن الحدود حق، وإقامتها - بصورتها الشرعية - مطلوبة إلى آخر الدهر، وما يقال عن قسوتها ضرب من الهراء، ونحن نستبين ذلك كل الاستبانة عندما نتوسم أحوال المجتمعات التي أنكرتها أو تركتها.

يقول الصحفي أنيس منصور: «إذا سرت في شوارع (أمريكا) فلا تحمل فلوسًا كثيرة، فقد يستوقفك أحد الزنوج وفي يده سكين. وإذا ذهبت إلى محل لشراء شيء فلا تخرج من جيبك مالاً كثيرًا للسبب نفسه، إن الأمريكيين يتعاملون بالبطاقات المالية ودفاتر الشيكات ولا يحملون مالاً، وفي الفنادق يطلبون منك أن تضع فلوسك عندهم وإلا فأنت المسئول إذا سرقت أموالك أو أشياؤك الثمينة!

وقد تجد مكتوبًا على باب الحمام: أغلق عليك الحمام





من الداخل، وإذا هاجمك أحد فاطلب رقم كذا بسرعة!

وهم ينصحونك ألا تمشي وحدك في الشوارع فإذا اضطررت إلى ذلك فكن متجهمًا بادي القوة، حتى لا يُظَن بك الخوف!».

قال: «ونزلت أتمشى وحدي قريبًا من البيت الأبيض، وكان الشارع خاليًا تمامًا من المارين، وفجأة وجدت رجلًا يتوكأ على عصاه، استوقفني وسألني: كم الساعة؟ فتوقفت أنظر في ساعتي، فإذا هو يخرج سكينًا من بين ملابسه.. فأعطيته الساعة! ونظرت فإذا هو يزيح القناع عن وجهه ويبدو شابًا صغيرًا!! لم يكن شيخًا ولا زنجيًا، وضحك وضحكت.

وبينما أنا أنظر إلى الشاب إذ قفز إلى جواري شاب آخر. فرفعت يدي إلى أعلى، مظهرًا أنه ليس معي شيء، فأشار إليه - اللص الأول - من بعيد، فتركني!.

وعرفت أن الزنوج ليسوا وحدهم قُطَّاع الطرق في أمريكا»!.

لقد فقد هذا السائح المصري ساعته؛ لأنه سار وحده، فالأمن مفقود في العاصمة الكبيرة، لا أرتاب أن الساري لو كان أنثى لفقدت مالها وعرضها جميعًا، وإذا قاومت مغتصبها فقدت حياتها!

وقد يكون القتيل رب أسرة لا يعود إليها!

والحديث هناك عن قلب يخشى الله أو يهاب لقاءه حديث





خرافة ! فقد انقطع التيار الكهربائي في المدينة مدة طويلة، فنهبت أغلب المتاجر والمعارض في الظلام العارض، إن وجود الضمير مرتبط برجل الشرطة وحده ! ما أشرف هذه الحضارة !.

وعجبت لعمى القانون عندما قرأت أن لصًا أطلق النار على جندي كان يطارده، ثم قبض بعد لأي على اللص، وأودع السجن، وقضي الأمر !

ماذا حدث ؟ إن عقوبة الإِعدام ملغاة ؛ لأن القصاص وحشية ! !

إنه لا يقر الأمان، ويمنع الإجرام في هذه البلاد إلا إقامة الحدود، الحدود وحدها هي الدواء، قد تكون نجد والحجاز أقل حضارة من الولايات المتحدة، بيد أن ظلام الإرهاب والإِجرام والتوجس والفزع لا وجود له في هذه الأرجاء الفيحاء، ما السبب ؟ إقامة الحدود.

لو أن عربة محملة بالذهب مشت من شمال اليمن إلى أول الشام ما فكر أحد في اعتراضها، إذ الناس رجلان إما خائف من الله فهو يعاف أكل السحت، وإما خائف من شريعته فهو واقف عند حده، لا يتعرض لقطع اليد، ولا لقطع العنق !

أرى أنه لا يحنو على المجرم ولا يعطل القصاص إلا خائف منه على نفسه !

لقد قلت في مكان آخر : إن رب الحياة الخبير بدروبها ومتاهاتها وضع رسمًا لمعالم الطريق إذا التزمه الأحياء لم





يضلوا، فما معنى الإعراض عنه؟ إن المصنع الذي أخرج الآلة، وضع تعليمات بطريقة استخدامها، فلماذا نرفض هذه التعليمات؟

إن خالق البشر أنزل أحكامًا محددة، وقال لنا ونحن نسمعها:

﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النساء: ١٧٦)

فماذا نبغي؟ ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة: ٥٠)

يظن بعض الجهال أن الحدود نقطة ضعف في الشرائع السماوية! ونسوا أنهم سوف يعانون القلق والترويع ما داموا يأبون إقامتها، ولن يستريحوا إلا بعد إعلان السمع والطاعة.

إن الحدود المقررة تعد على الأصابع، ويخيل إليَّ أن تطبيق حد ما على أي إنسان يرتبط بقدر غالب، ولأشرح ما أعني:

إن الله يعلم ضعفنا، ويتجاوز كثيرًا عن هفواتنا، ولو أخذ المرء بأول عثراته ما نجا أحد من عقابه

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾. (النحل: ٦١).

إنه يمهل ويمهل، حتى إذا فاض الإناء فضح وآلم!. وذلك





ما أشار إليه (عمر) عندما استغاثته امرأة «يا أمير المؤمنين» ابني سرق وهذه أول مرة، فقال لها: «كذبت إن الله لا يفضح عبده لأول مرة»!!

نعم إن الله يستر كثيرًا حتى إذا توقح المرء وتبجح جره سوء أدبه إلى مصيره.

ومع ذلك، فإن الذي شرع الحدود ندب المؤمنين إلى الستر على المنحرفين، ومنحهم فرصة متاب! لعلهم يرعوون! فعن سعيد بن المسيب أن رجلًا من قبيلة أسلم اسمه (هزال) شكا رجلًا إلى رسول الله ﷺ، متهمًا إياه بالزنى، فقال له النبي ﷺ: «يا هزال، لو سترته بردائك لكان خيرًا لك»!..

وكانت هذه الشكوى قبل نزول آية القذف، وإلا لجلده النبي ثمانين جلدة، والغريب أن الرجل المشكو الذي أمر الرسول بستره، هو (ماعز) المؤمن التائب الذي أبى إلا أن يموت مطهرًا، كأن الرسول الكريم ألهم الدفاع عن رجل صالح يكره الإثم، ويضيق باقترافه، إن وقع فيه!!

وفي إقامة الحدود جاء عن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة» (سنن الترمذي).

وقد كان حد السكر على عهد رسول الله ﷺ ضربًا مهينًا





يوقع بالعربيد الذي قبض عليه ، ثم رأى الصحابة بعدُ أن يجلد السكير أربعين أو ثمانين جلدة .

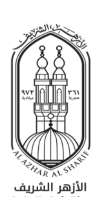
أمـا حد السـرقة فهو قطع اليد ، ولـم يقـل أحد ، إن الجائع تقطـع يده إذا سـرق ما يقوته إنما تقطع يـد البطال المعتدي على كسـب الآخريـن وكدحهـم ، والذي يبني سـلوكه على الظلـم والإفسـاد ، ولا أرى سـببًا لاحترام هذه اليـد ، وتركها تؤذي وتفجع الناس في حقوقهم .

أمـا المسـلحون المتظاهـرون علـى النهـب والسـلب ، المتعاونـون علـى الإثـم والعـدوان وقطـع الطريق وإشـاعة الفوضى ، فإن قتلهم حق .

بقي أن نقول : إن عقوبة الزنى صعبة التنفيذ ، فإن المجيء بأربعـة شـهداء يـرون وقوعهـا يـكاد يسـتحيل . إلا إذا كان المجرمان في طريق عام ، عاريين مفضوحين لا يباليان بأحد !

وعندمـا يتحول امـرؤ إلى حيوان متجرد علـى هذا النحو الخسيس ، فلا مكان للدفاع عنه أو احترام إنسانيته .





٥٨ - ما الضرائب في الإسلام وما نظامها؟

سمعت كلمة من صديق عاش في أوروبا ردحًا من الزمن عجبت لها ولم أنسها، قال: إن يوم إقرار الموازنة العامة للدولة يكاد يكون يوم عيد الفرحة عامة، والبشر باد على الوجوه!

قال: وفي بعض البلاد يقال لدافعي الضرائب: ادرسوا تفاصيل الإنفاق انظروا أين وضعنا ما أخذنا منكم من مال!!

لقد روعيت المصلحة العامة بأمانة، وسدت الثغرات، وكفلت مدارس ومستشفيات، وفرحت طوائف، وتحققت آمال.. إلخ، نعم! وأخذ المال بحق وأعطي ببصر، ووزع بعدل، فهناك لا تفرض ضريبة إلا بموافقة نواب الأمة، ولا تصرف إلا بهذه الموافقة.

تذكرت أنين (سديف) الشاعر الذي انضم إلى ثورة النفس الزكية وهو يقول: «اللهم قد صار فيؤنا دولة بعد القسمة - أي استأثر الأغنياء به فهو دولة بينهم - وإمارتنا غلبة بعد المشورة - يشكو الاستبداد السياسي.

واشتريت الملاهي والمعازف بسهم اليتيم والأرملة - سوء التصرف في المال العام - وحكم في أبشار المسلمين أهل الذمة !وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محلة - هكذا تقع الطيور على أشكالها. اللهم قد استحصد زرع الباطل، وبلغ نهيته، واستجمع طريده.



اللهم فافتح له من الحق يدًا حاصدة تبدد شمله وتفرق أمره، ليظهر الحق في أحسن صوره، وأتم نوره».

يقصد بالضرائب المال الذي تأخذه الدولة من الجمهور في صور شتى ليعود ذلك المال مرة أخرى إلى الناس في صورة خدمات عامة وضمانات لوجود الأمة ورخائها، وصون مصالحها ودعم القائمين عليها.

ومن هنا كان أداء الضريبة لا بد منه، وكان التهرب منه أشبه بالخيانة الوطنية وفي البلاد الراشدة يندر كل الندرة أن تذهب حصيلة الضرائب في إجابة شهوة خاصة، من أجل ذلك ينظرون إلى المتهرب من الضرائب على أنه ارتكب ما يحرمه من المناصب الكبرى وما يصمه بأردأ التهم.

وقد فرقنا في كتاب آخر بين الضريبة والزكاة، فإن الله فرض الصدقة تطهيرًا للنفس من رذيلة الشح ومساعدة للفقراء على رد الضوائق والأزمات، وإسهامًا في الدفاع عن العقيدة... إلخ.

وحدد القرآن الكريم مصارف الزكاة في ثمانية أصناف لا يجوز أن تعدوها إلى غيرها إلى دائرة الضريبة، فهي أوسع مصادر ومصارف، ومن حصيلة الضرائب ينهض الكيان السياسي والعسكري والحضاري للأمة، ومنها ينفق الجهاز الإداري.

وقد تكثر الضرائب وترتفع نسبها خصوصًا أيام الحروب





حتى تصل إلى ٩٠٪ من الدخل العام.

أما الزكاة فموكول إليها ابتداء القضاء على البأساء والضراء، ومن مصارفها الثمانية سهم قد يوجه للجهاد العسكري، لكن مغارم الجهاد قد تمتد لتشمل المال كله، والنفس معه.

ولعلك ترى من هذا أن ثمة تشابكًا بين دائرتي الضريبة والزكاة مع انفراد كل منهما بمجال تختص به.

والأمم الكبرى - خصوصًا من لها نشاط عالمي - تتفنن في وضع الضرائب وتعديد أوعيتها وتقرن ذلك بأهداف قومية مباشرة وغير مباشرة.

والإسلام حدد نسب الزكاة، ومستحقيها، لكن النشاط الإسلامي العالمي الممتد يفرض على المسلمين بذلًا لا يقف عند حد، كي يبلغوا رسالات الله، ويحسنوا الدفاع عنها.. وقد تأملت في مطالب التربية والتعليم، ومطالب الدعوة والثقافة، ومطالب الأسطول البحري والجوي، ومطالب الجيش وأسلحته الكثيرة، ومطالب الصناعات المدنية والعسكرية.. إلخ فوجدت أن ذلك يتطلب أموالًا لا تغيض منابعها - فأدركت معنى قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ (التوبة: ١١١)





وقوله:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾

(التوبة: ٤١)

ويظهر أن كلمة (النفقة) تشمل الصدقات المفروضة والنافلة، وتشمل أنواع البذل التي يفرضها العمل لله في شتى الميادين.

وربما تمر بالمسلمين أيام يكلفون فيها بإنفاق ما يزيد على حاجاتهم الخاصة، لا يستبقون شيئًا استجابة للآية الكريمة:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾

(البقرة: ٢١٩)

وهكذا نرى أصحاب الأموال يرعون مصالح أممهم، ويعطون دون منٍّ ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١١٥)

وقد كنت ـ فيما كتبت فِي صدر حياتي ـ أرى ذلك من مقتضيات الفطرة، وأفهمه من ظواهر الرأي، ثم وجدت أن فقهاءنا استنبطوه من القواعد المقررة في الشريعة، قال أحد المشايخ إنه يمكن «إذا قضت ظروف الحرب فرض ضرائب على القادرين وأهل اليسار لتمويل الجهاد، وإمداد الجيوش



وإعداد الحصون، وما إلى ذلك من احتياجات الحروب، فإن الشرع يؤيد ذلك ويوجبه كما نص على ذلك الفقهاء، وإن كان كثير منهم في الأحوال المعتادة لا يطالب الناس بحق في المال غير الزكاة» واستدل الغزالي على ذلك بقوله: «لأنا نعلم أنه إذا تعارض شران أو ضرران، قصد الشرع إلى دفع أشد الضررين وأعظم الشرين.

وما يؤديه كل واحد منهم - يعني المكلفين بهذه الضرائب - قليل بالإضافة إلى ما يخاطر به من نفسه وماله لو خلت بلاد الإسلام عن ذي شوكة يحفظ نظام الأمور، ويقطع مادة الشرور».

وقال أيضا: «مثل ذلك فك أسرى المسلمين، وتخليصهم من قيود الكافرين وإذلالهم، مهما كلف ذلك من أموال، قال الإمام مالك: يجب على كافة المسلمين فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم، ذلك، لأن كرامة هؤلاء الأسرى من كرامة الأمة الإسلامية، وكرامة الأمة فوق الحرمة الخاصة لأموال الأفراد».

وهذا منطق سديد هدي إليه الفقهاء والدعاة والموجهون في تاريخنا العلمي، وسارت عليه الأمم الآن شرقا وغربًا، فالحكومات الواعية قد تجعل من الضرائب شريان حياة كما تجعل منها أحيانًا جراحة شفاء وتجميل.

رأينا الضرائب تزاد على أسباب الترف وأدوات الزينة ولا بأس في ذلك فالحصيلة ستكون سنادًا للفقراء والمعوزين.

ورأينا الضرائب تفرض على المصنوعات الأجنبية





حماية للصناعة الوطنية، وهذا حسن، وقد نهضت في الهند صناعات توشك أن تحقق الاكتفاء الذاتي للهنود، بسبب الضرائب الصارمة التي أوجبتها الدولة.

وإذا أكره الجمهور على استخدام أدوات أو سلع غير جيدة، فإن سنة الارتقاء ستصل بها إلى المستوى المنشود يومًا ما.

على أية حال لابد أن نذكر أن الدولة الإسلامية مربوطة بمبادئ وآداب وأهداف لا يمكن تجاهلها، في الداخل والخارج على سواء، وربما بلغت الدولة بعض غاياتها بوسائل قريبة، كما حدث من تآخ بين المهاجرين والأنصار على عهد رسول الله ﷺ، أو على نحو ما فكر عمر بن الخطاب عندما قال: لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عِدَّتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم، حتى يأتي الله بالحيا لفعلت! فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم!!

لكن هذه الوسائل قد تصعب الآن، والبديل المحتوم عنها هو الضريبة التي تمكن الحكومة من مباشرة الإطعام والإيواء، وإمداد المحتاجين بما يسعفهم ويصونهم ماديًا وأدبيًا.

وما يقال في مطالب السلام يقال مثله في مطالب الحروب، لاسيما وقد أحاطت بنا الذئاب من كل فج، وسمع لعوائها طنين رهيب!

ولن يأسى مؤمن على مال يذهب في هدف شريف.





٥٩- كيف يحقق الإسلام التوازن الاقتصادي في المجتمع؟

لا يرتاب عاقل في أن الإسلام منح الفرد حق التملك ما دام السبب مشروعًا، قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

(يس: ٧١ - ٧٣)

وقد رغب الواجدين أولى السعة أن يؤتوا غيرهم ويشركوهم في نعمة الله لديهم

﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾

(النور: ٣٣)

ورهب - سبحانه - من تسليط اليد السفيهة على المال تريقه في العبث، وتهدد المصالح المرتبطة به القائمة عليه

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾

(النساء: ٥)

ونادى تبارك اسمه جماهير المؤمنين أن يستعفوا عن الحرام، وألا تكون معاملاتهم انتهابًا وشرهًا، بل يجب أن تكون عن طيب نفس، وعن رضا قلبي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم






بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ ﴾
(النساء: ٢٩)

والواقع أن ازدهار العمران وتوقد الملكات، وتضاعف الإنتاج إنما يجيء مع سباق الحوافز الخاصة، ورغبة البشر في الكسب، والمزيد من الكسب؛ لأنفسهم وأولادهم.

وقد أقر الإسلام حرية التملك، وإن كان قد أثقلها بالقيود التي تمنع سطوة الأنانية، وطغيان الاستغناء.

والشيوعية تلعن الملكية الخاصة، وتجعلها مسئولة عن المظالم الاجتماعية قديمها وحديثها!

وقد تكونت للشيوعية بشقيها الاقتصادي والفلسفي الإلحادي دول كبيرة، والذي يعنيني أنا المسلم المؤمن بالله وكتبه ورسله - أمران: أحدهما أهم وأخطر من الآخر.

الأول:

إثبات معالم الإيمان جملة وتفصيلًا؛ فلا هوادة في جحد الألوهية، وإنكار الوحي الأعلى.

الثاني:

احترام الملكية الصحيحة، ورفض ما عداها من تملك أساسه السحت والاغتصاب وضروب الاستغلال السيئ.

وإنما أقرر ذلك؛ لأن هناك أناسًا يزعمون الإسلام - ويعلم الله ما في قلوبهم - ثم يتخوضون في مال الله تخوضًا رهيبًا فلا يتركون منه إلا ما عجزوا عن حمله! ولا يبالون من أين اكتسبوا! ولا يرقّون لضعيف داسوه وهم يجمعون، ولا





يكترثون لمحتاج يرنو إليهم ابتغاء معونة ! !

يقول أولئك : إنهم يحاربون الشيوعية ؛ لأنها ضد الدين ! ! وهم الطريق الموصل إليها والمغري بها ! ! والدين الذي يذكرونه بعيد عن أخلاقهم وأعمالهم !

على أية حال نحن نحامي عن الإسلام الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد، ونأبى أن تبقى رسالته العظمى في وصاية نفر من المترفين والمتخومين :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(القصص : ٥ ، ٦)

ومن الصعب فصل الاقتصاد عن السياسة، ومن هنا فإنك حيث تجد الخلل السياسي تجد الإثراء والحرام، واستغلال السلطة إلى أبعد الآماد، وسوق المغانم إلى الأقارب والأتباع والحواشي.

وأرى أن طهارة الربح أصل عظيم لصلاح المجتمع، وأن مصادرة الأملاك التي سرقت من حقوق الآخرين تعيد إلى النفوس والأوضاع قدرًا كبيرًا من الاستقرار والتوازن، إن رأي الأجانب في أساليب الربح والخسارة، والغنى والفقر في بلادنا ينكس رءوس الدعاة، ويلصق بالإسلام تهمًا هو منها براء.

وقد سردنا النصوص في تحريم النهب والغش والاحتكار والاستغلال في أماكن من كتبنا.






والمال المكسوب من حلال تجب فيه حقوق شتى، أولها الزكاة، ومكانتها في الإسلام كبيرة، والغاية منها قطع دابر البأساء والضراء، وإبداء العون الذي يحقق للفقراء الاكتفاء الذاتي.

وتدبر قول الرسول الكريم: «ألا رجل يمنح أهل بيت ناقة تغدو بعس - قدح كبير - وتروح بعس؟ إن أجرها لعظيم». (رواه مسلم)

أي توفر لأهل البيت مقداراً سخيًا من اللبن في الصباح والمساء، وبذلك تتم تغذيتهم.. إن الصورة المعروفة للزكاة يد تمتد ذليلة سائلة لتتلقى فتاتًا يسد حاجة اليوم، ثم تكرر الضراعة والطلب لتسد حاجة الغد، وهكذا دواليك!!

وتلك لعمر الله مستكرهة، إن الإسلام أولا قاتل لاستخراج حق الله في المال، ثم تولت الدولة إعطاء من ترى بهم حاجة، لكن كيف تعطي وكم؟ يجيب أحد العلماء على ذلك في تفصيل نقتبس منه هذه السطور: «فهناك المذهب الذي رجحه الغزالي وهو مذهب المالكية وجمهور الحنابلة وبعض الشافعية وهو أن يأخذ المحتاج ما يتمم كفايته من وقت الأخذ إلى سنة مستقبلة - أي نفقة عام كامل - قال الغزالي فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث إن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل، ومن حيث إن الرسول الكريم ادخر لعياله قوت سنة، والقائلون بهذا الرأي يذكرون أن كفاية السنة ليس لها حد معين تقف عنده «فإن كانت لا تتم إلا بإعطاء الفقير الواحد أكثر من نصاب، من نقود أو حرث أو ماشية أخذ من الزكاة ذلك القدر، وإن صار به غنيًا؛





لأنه حين الدفع إليه كان فقيرًا مستحقًا ».

ومن الطرائف التي ذكرت أن الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز أمر من ينادى في الناس كل يوم: أين المساكين؟ أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ يعني طالبي الزواج الذين لا مهر معهم!! فإن بيت مال المسلمين يساعد على الزواج وإيتاء المهر.

ثم ذُكر رأيا آخر للفقهاء في القدر الذي يمنح من الزكاة، هذا القدر ليس كفاية عام كما ذكرنا، إنه كفاية العمر، قال: «وهذا الرأي هو الذي نص عليه الشافعى في (الأم)، واختاره جم غفير من أصحابه».

إن الإسلام دين طبيعي يحارب السرقة بتموين الناس! ويحارب الزنى بتزويج الراغبين في العفاف! ويسخر تعاليمه المالية لتحقيق أهدافه الخلقية، وضبط المسار الاجتماعي حتى لا يعوج أو يزيغ.

على أن دائرة الزكاة مهما اتسعت ينبغي ألا تعدو بها حدودها، قد تكون الزكاة عونًا للعاجزين، ولكنها مساعدة مؤقتة للعاطلين إلى أن يجدوا العمل!

وقد جاء في الحديث: «لا تجوز الزكاة على ذي مّرة سوي»(سنن أبي داود) أي أن الرجل السليم الخلقة، السوي الحواس والأعضاء يتجه إلى العمل ليتكسب منه ويقوت أهله!

ولا ننسى أن الزكاة نفسها هي فضول ممن عملوا وكسبوا وادخروا، فالعمل هو المصدر الأساسي للثروة، وعلى الدولة أن




تمهد ميادينه لكل قادر، وأن تحارب البطالة بكل ما لديها من قوة !

وأجدني مكلفًا بمصارحة قومي، وإن ساءتهم هذه المصارحة، إن غيرهم من الناس كان أجلد منهم على العمل، وأبصر بأسبابه، وأحيل على معالجته والنجاح فيه ونيل الغنى الباذخ منه !

وقد تساءلت عن سر ذلك ؟ فوجدت أن تقاليد البدو تسللت إلى تعاليم الإسلام وتقاليد المسلمين فوقفت بأمتنا على حين تحرك غيرها وسبق سبقًا بعيدًا.

والبدو يحتقرون الفلاحة، ويزدرون الحرف، ومجالس الأعراب ملأى بالمفاخرات والمنافرات والتطاول بالرياسة، والتنزه عن عدد من الصناعات !

فالفرزدق يهجو جريرًا لأن أباه حداد ! أما مجاشع جد الفرزدق فلا تدري مما يأكل ؟ وإلى أمد قريب كان ابن عمدة القرية آصل من ابن طبيب القرية ! أو ابن شرطيها ! واليد الملوثة بالنفط والقار مؤخرة عن التي تقبض النقود حصيلة كدح هذا وذاك ! ! وربما وصل هذا التفاوت إلى عقود الزواج فعد ابن هذا ليس كفئًا لبنت ذاك، ونسبَ ذلك كله إلى الإسلام !

إن المجتمع الإسلامي يجب أن يعاد تشكيله وفق القانون الإلهي الفذ :

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾

(التوبة : ١٠٥)

أما عوائد المترفين والقاعدين فلتطوح معهم إلى الجحيم.





٦٠- ما موقف الإسلام من نظام المصارف الحالي وما البديل الذي يقدمه؟

المتأمل في أعمال هذه البنوك يجد بعضها حلالًا محضًا، والآخر حرامًا لا ريب فيه، وهناك أعمال يمكن بتعديلات يسيرة أن تأخذ الصورة المشروعة.

ومن هنا شرع الاقتصاديون المسلمون يرفعون قواعد المصارف على أسس من الفقه الإسلامي، ففي هذا الفقه عَقْدُ المضاربة الذي يتم بين الخبرة من ناحية ورأس المال من ناحية أخرى، كما أن في هذا الفقه قواعد ممهدة للصرف والحوالات والضمان والوكالة وغير ذلك.

ثم إن جماهير المسلمين راغبة كل الرغبة في أن تبعد طعمتها عن الشبهة فضلاً عن الحرام، لذلك ما كادوا يسمعون عن مصرف إسلامي حتى سارعوا إلى الإسهام فيه!

وقد نهضت الآن عدة مصارف في وجه مقاومة منظمة من البنوك العالمية التي لا يسرها ما حدث!...

وقد قرأت كلمات لرؤساء المصارف الإسلامية تشرح وظائفها، وعلائقها بالمؤسسات الاقتصادية الأخرى أرى أنها تلقي أضواء على الموضوع كله، فالأستاذ (سعيد لوتاه) رئيس المصرف الإسلامي (بدبي) يقول- بتلخيص قريب من الأصل- : إن أنشطة هذه المصارف هي الترجمة العملية للنظام الاقتصادي الإسلامي في أيسر صوره، نحن نقوم بدور





الوسـيط بين المال ورجل الأعمال في كل المجالات، وذلك في نطاق محكم من تعاليم الشريعة، وتقدير عملي لحاجات الأفراد، أي إننا نربط الفكر النظري بالواقع.

وفـي العلاقـة مع البنـوك الربويـة يقول: هنـاك فاصل لا يمكـن تخطيه! فنحن لا نأخذ فائـدة، والربا عندنا محرم في كل قرض سواء للاستهلاك أو الإنتاج.

يمكـن أن نتعامـل مـع البنـوك الأخـرى في الحسـابات الجارية، وتحويل العملات، وصرف الصكوك (الشـيكات) وخطابـات الضمان، وأنـواع الكفالات، فهـذه كلها أعمال مصرفية جائزة شرعًا.

ويقول الأستاذ أحمد أمين فؤاد رئيس المصرف الإسلامي الدولي للتنمية والاستثمار ـ السابق :ـ إن المال والكون كله، ملك لله سبحانه، وقد استخلفنا الله في هذا المال ليرى كيف نكتسـبه وكيف ننفقه، فما يجـوز أن نتملكه من وجه محرم ولا أن ننفقـه على نحو سـيئ، كما لا يجـوز أن يكون تداول المال فـي المجتمع على نحو يزلزل قواعـد الأخلاق ويهدد كرامة البشر، فالمال أداة لخدمة الإنسان وليس الإنسان عبد المال.

والمفروض أن يكدح المرء ويخاطر، لينجح لا أن يحاول الربـح دون جهد يذكر.. والمصارف الإسـلامية وهي تعطي المال لطالبه تشارك في رسم الخطة وتقدير الظروف وتحمل المسـئولية، أما البنـوك الربويـة فهي تتنصل مـن هذا كله،





وتحتمي وراء ضمان الفائدة وحسب !

وقد كان نتاج الأسلوب الربوي مريرًا ، وانطبق عليه قوله تعالى :



(البقرة : ٢٧٦)

كيف كان هذا المحق ؟ ننظر إلى الدول المدينة والدول الدائنة على مدى أربعة أجيال من القروض الدولية !

إن الدول النامية ـ المقترضة ـ تتدحرج من سيئ إلى أسوأ ، وها هي ذي قد أوقفت برامج التنمية وعجزت عن سداد الأقساط ، والفوائد المقررة ، ويوشك أغلبها أن يعلن إفلاسه .

أما الدول الدائنة فقد كانت فرحة بقدرتها على الإقراض وفرصتها في أكل الربا ، ثم ذاقت وبال أمرها بعد تدهور أحوال المدين ، وظهور عجزه .

حتى إعادة جدولة الديون لا تحقق خيرًا ، فإن هذه الإعادة تؤدي إلى خسارة ٨٠٪ من القيمة الأصلية للدين .

ولو طبقت الأنظمة المحاسبية على هذه المؤسسات لأعلنت إفلاسها . . أليس هذا هو المحق الذي توعد القرآن به المرابين ؟





٦١- ما هي حدود الكسب الحلال في التجارة؟ وكيف يضع الشارع حدًا لأرباح التجار؟

التجارة باب عظيم من أبواب الثراء في الدنيا كما هي ميدان فسيح للنشاط العمراني، وتنقيل الخيرات بين أرجاء الأرض.

والعجيب أنها كذلك باب عظيم إلى الثراء في الآخرة ورفعة المكانة عند الله، وحسبنا في ذلك قول الرسول الكريم.

«التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» (سنن الترمذي)

وقد وقفت مليًا أمام حديث آخر يشيد بخلق السماحة والرحمة في معاملة التاجر لغيره، وبهرني ما ذكر من مثوبة لهذه الخلال، فعن حذيفة وأبي مسعود البدري أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «إن رجلا ممن كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه! فقال له: هل فعلت من خير؟ قال: ما أعلم..! قيل له: انظر.. قال: ما أعلم شيئًا غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا فأُنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر.. فأدخله الله الجنة». (رواه البخاري)

والمعروف أن قوم النبي -عليه الصلاة والسلام- كانوا يشتغلون بالتجارة بل لعلها كانت مصدر رزقهم وعماد معايشهم، وكانت حركتهم ناشطة بين اليمن والشام، وبين فارس والروم.





وقد شارك النبي نفسه في بعض الرحلات التجارية، وعاش ﷺ من العمل في هذا المجال عمره الأول، وكذلك كان صحبه.

ولما كان العرب يمسون ويصبحون في هذا الجو التجاري المشغول بالأرباح والمغامرات فإن لغة الوحي اتجهت إليهم من هذه الزاوية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾

(الصف: ١٠، ١١)

وفي وصف المنافقين، وعبيد الدنيا، وطلاب المآرب، الخاصة يقول سبحانه:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾

(البقرة: ١٦)

والتجارة على كل حال ينبغي أن تكون شريفة الوسائل، نبيلة المسالك، وفي صيحة تحذير من الغش والخداع والجشع يقول الرسول ﷺ.

«إن التجار يُبعَثون فجارًا يوم القيامة إلا من اتقى الله وبر وصدق». (سنن الترمذي)

ومعروف أن التاجر يشتري السلعة بثمن ما ولكنه عندما يضع لها سعرًا للبيع، يضيف إلى ثمنها الأصلي نفقات النقل





والتخزين، ثم الربح الذي يقيم عليه حياته، وقد يضيف إلى ذلك زيادة ما لضمان غده.

إن التاجر ليس موظفًا حكوميًا له أجره الرتيب، وله مدخرات تكفل معاشه بعد ترك الوظيفة، كلا إن الميدان الذي يعمل فيه يقوم على المخاطرة، وبديهي أن يحتال التاجر ليحفظ حاضره ومستقبله جميعًا.

والناس تعلم ذلك، وترضى به في نطاق الاعتدال، وإن كان هناك من يغالي في تقدير أجره على تعبه أو يغالي في مستوى العيش الذي ينشده!

وفي ربح التجارة يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ ﴾

(النساء: ٢٩)

وللشيخ محمد عبده تفسير غريب لهذه الآية فهو يقول: «إنما استثنى الله التجارة من عموم الأموال التي يجري فيها الأكل بالباطل -أي بدون مقابل- لأن معظم أنواعها يدخل فيه الأكل بالباطل ... فإن تحديد قيمة الشيء وجعل ثمنه على قدره بقسطاس مستقيم عزيز عسير إن لم يكن محالا ، فالمراد من الاستثناء التسامح بما يكون فيه أحد العوضين أكبر من الآخر وما يكون سبب التعاوض فيه براعة التاجر في تزيين سلعته وترويجها بزخرف القول من غير غش ولا



خداع ولا تغرير . . فإن المرء قد يشتري الشيء من غير حاجة ملحة إليه ، وقد يشتريه بثمن يعلم أنه أكبر مما يباع به في مكان آخر ، ولا يكون لذلك سبب إلا أن البائع أمهر وأقدر ، مع بعده عن الغش ، ومحافظته على الصدق» .

قال الشيخ : «فيكون هذا الكسب من باطل التجارة التي تمت بالتراضي ، وهو ما استثنته الآية الكريمة والحكمة في إباحته الترغيب في التجارة لشدة الحاجة إليها ، وتنبيه الناس إلى استعمال ما أوتوا من ذكاء في اختيار الأشياء ، وضبط المعاملات وحفظ أموالهم التي جعلها الله قيامًا أن يذهب شيء منها بالباطل» .

ثم قال : «فعلى هذا يكون الاستثناء متصلًا خرج به الربح الكبير الذي يحصل عليه التاجر من غير غش ولا تغرير ، بل تم بتراض لم تنخدع فيه إرادة المغبون ، ولو لم يبح الشارع مثل هذا لما رغب في التجارة ولا اشتغل بها أحد من أهل الدين . . إلخ»

وقد ناقش الدكتور محمد زكي عبد البر هذا الكلام ورفضه ، وفسر التراضي بأنه ركن التجارة المباحة ، ويعني طيب النفس بالأخذ والإعطاء ؛ فلا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه قال ﷺ :

«لا يحل للرجل أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفسه» .

(مسند أحمد)

قال الدكتور : «لا نذهب إلى ما ذهب إليه الأستاذ الإمام






من مشروعية التجارة عن تراض ولو كان بها شيء من الباطل، ترغيبًا في التجارة لشدة الحاجة إليها؛ لأن القول بالمشروعية يتنافى مع الباطل ولأن الأمر إذا شُرع لا يعد باطلًا، وإذا كان باطلًا لا يكون مشروعًا... إلخ».

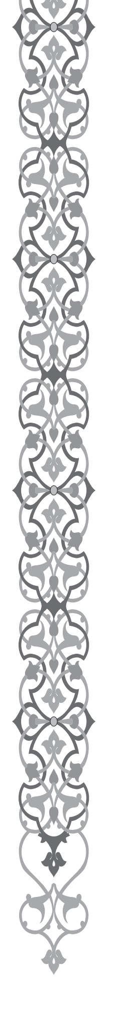
ويبقى بعد ذلك كله السؤال الوارد: أليس لأرباح التجارة حد تقف عنده، وتحرم بعده؟ ربما لا نجد نصًا صريحًا في تحديد الربح، والذي نراه أن الظروف الطبيعية تقف بالمكاسب عادة عند حدود الاعتدال.

لكن نفرًا من التجار يحاول السيطرة على هذه الظروف والتلاعب بقانون العرض والطلب، ويصل إلى غايته بالاحتكار المتعمد للسلع، حتى يبيعها بأضعاف سعرها والاحتكار جريمة خلقية واجتماعية، وهو أقصر طريق لأكل أموال الناس بالباطل، وإشباع النهم الفردي من حاجة ذوي الحاجات.

ولعل من أدهى العلل التي وفدت بها الحضارة الحديثة حرق بعض المحاصيل الزراعية حتى لا يرخص السعر الذي حدده الباعة..! والكفر- كالجنون- فنون!

بعدما تبينت ضخامة الأرباح التي تجنيها الشركات المحتكرة فهمت قول رسول الله ﷺ: «لا يحتكر إلا خاطئ» (رواه مسلم)، وما روي عنه «يحشر الحاكرون وقتلة الأنفس في درجة! ومن دخل في شيء من سعر المسلمين يغليه عليهم كان حقا على الله تعالى أن يعذبه في معظم النار يوم





القيامة» (الترغيب والترهيب) وكذلك ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام من رواية معاذ بن جبل: «بئس العبد المحتكر إن أرخص الله تعالى الأسعار حزن، وإن أغلاها فرح». (شعب الإيمان للبيهقي).

وقد رأى الشيوعيون إلغاء التجارة لما رأوه من جشع أغلب التجار! وعينوا من يوزع السلع بعد نقلها من مواطن إنتاجها إلى مواطن استهلاكها!

وهذا الحل لا يجدي في تلبية الرغبات العامة، ولا يتجاوب مع الحريات الطبيعية، وهو جزء من خطة في العيش لم تحظ برضا الجمهور، فبقيت في حراسة السلاح.

والذي نراه إبقاء سوق العرض والطلب، وإطلاق المنافسة الحرة بين الأفراد والشركات، وتدخل الدولة بالتسعير الجبري إذا أحست سوء الاستغلال.

ويبقى أمر له وزنه الكبير وإن مارى فيه البعض أعني وازع الدين وقانون الأخلاق؛ فإن زكاة النفوس في جو التربية السليمة والحريات المكفولة يمنع أنواعًا من البلاء، ويجعل التجارة في إطار الحديث الشريف.

«رحم الله رجلًا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى». (رواه البخاري).

ومن لطائف عمر بن الخطاب أنه قال:

«لا بَيْعَ في سوقنا إلا لمن قد تفقه في الدين». (سنن الترمذي).





٦٢- ما دام الدين واحدًا فلماذا تتعدد حركات التجديد وتكثر مناهج المصلحين؟

شرائع الإِسلام لا يغني بعضها عن بعض، ومعالمه الكاملة تؤخذ من نصوصه وقواعده، وفروضه ونوافله في صورة منسقة على حسب الوضع الإِلهي الذي أتت به.

غير أن المسلمين قد يسيئون إلى الموضوع أو الشكل وقد ينحرفون عن الأصل أو الفرع. والعلل التي تصيبهم شتى.

وهناك عينان حمئتان تسيلان بالشرور في واقع المسلمين المعاصر: إحداهما من الاضطراب الداخلي في ثقافتنا وسياستنا، وهو اضطراب قديم مضت على جراثيمه قرون.

والأخرى من الاستعمار الخارجي الدائب على محو شخصيتنا وهدم قواعدنا وحوك المؤامرات في كل ميدان ضدنا.

ومن ثم تتغاير الأدواء التي يحاصرها المصلحون، ويبغون شفاء الأمة منها، واهتمام أحدهم بوضع ما وجده في بيئته لا يعني قلة اكتراثه بالأوضاع الأخرى.

إن الظروف التي يواجهها هي التي تحكم عليه بمنهج معين يتخصص فيه ويعرف به..

والإِصلاح في الميدان السياسي كالإِصلاح في الميدان العقائدي له رجاله المرموقون.





وهنـاك الإِصلاح في الميدان الثقافـي، وغايته ـ كما أرى ـ إعادة الرشـد إلى العقل الإِسـلامي الـذي كاد يفقد وعيه بعد غيبوبة طالت وتراكمت آثارها، وأمسـى المسـلمون معها لا يعرفون رأسـا من ذنب في أفق المعرفة الدينية، وأمسـوا عالة على غيرهم في علوم الكون والحياة.

إن الله يبعث رسـله من أنفس السـلالات البشـرية معدنًا، وأحدها ذكاء وفطنة، والغريب في الأمة الإِسلامية أنها كادت تحصـر علوم الدين بين الغوغاء والهمل، وتكاد تلاوة القرآن الكريم تكون حرفة لأشـباه المتسـولين!!.. فهل نجني من ذلك إلا المر؟!

ولمـا كنـت جنديـا في جيـش الدعـاة الإِسـلاميين فإِني مضاعف الحس بما يعاني الإِسلام من بلبلة وخوض في قضايا شـديدة الوضـوح، ففي ميـدان التربيـة فوضـى أثارها بعض الناس، وفي ميدان التشـريع فوضـى أثارها بعض الناس، وفي ميـدان التعليـم فوضى آثارها قاصرون، حتـى لأكاد أقول: ما يبدأ الإِصلاح إلا من هنا!

وسـواء بدأ الإِصلاح ثقافيًا أو سياسـيًا، فإِن المسار واحد لابـد أن يلتقـي علـى صعيـده المخلصـون وإن تباينت نقط الابتداء وستجني الأمة منه أطيب الثمر!!





٦٣- ماذا عن أحاديث آخر الزمان، وهل لها دلالات معينة؟

قبل أن ينتهي أجل الدنيا، وتتلاشى الحياة فوق هذا الكوكب ستقع أشياء كثيرة مثيرة!.. بعضها يتصل بالأمة الإسلامية التي كلفت بهداية العالمين وفرطت في هذا التكليف! وبعضها يمس الناس كلهم، الذين خلقهم الله لعبادته فآثروا عبادة أنفسهم، وجعلوا إلههم هواهم!..

يظهر أن التقدم المادي سيبلغ الذروة، وأن الغنى سيملأ كل يد، وأن الأرض -قبل أن تسلم النزع الأخير- ستتخلى عما في بطنها!، لمن تدخره؟ يوشك أن تصغر جنباتها! فترمي بذهبها وفضتها على ظهرها، ومن هنا سيتطاول الرعاع في البنيان، ويسكنون ناطحات السحاب، وينعم العبيد بمستوى المعيشة التي عرفت للملوك!.

ذلك ما نفهمه من قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ (يونس: ٢٤)

وقوله:

﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ (الانشقاق: ٣- ٥)





أي استمعت لأمره، وحق عليها أن تسمع !.

وذلك ما أشار إليه الحديث الشريف في علامات الساعة «ويفيض المال حتى لا يقبله أحد !» (صحيح البخاري) وقوله عليه الصلاة والسلام في هذه الأمارات: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» (صيحح مسلم) وفي رواية «إذا كان الحفاة العراة رءوس الناس» (صحيح البخاري).

وقد وهل البعض في فهم هذه الكلمات، وظنوا الإسلام يكره رياسة الفقراء! وهذا خطأ فاحش، وهل كان العرب حملة الحضارة الإسلامية إلا فقراء يرعون الغنم ؟

إن المقصود تقدم السفلة بالوسائل الهابطة، ووصول من لا كفاية له إلى مناصب لا يستحقها، وهذا ما نفهمه من الأحاديث الأخرى مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع» (مسند أحمد) أي اللئام الأقذار.

وفى رواية: «لا تقوم الساعة حتى يرث الدنيا شراركم» (مسند أحمد) وفي أخرى «لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله» (مسند أحمد).

والواقع أن فساد الحكم شر أنواع الفساد كلها، فإنه يتيح للأوغاد أن يدمروا الأخلاق والأمجاد وأن يرخصوا الدماء والأعراض.

ويبدو أن الأمة الإسلامية سيشيع فيها هذا البلاء أكثر من





غيرهـا ، فقد صح ، عن الرسـول الكريم أنـه بينا كان يحدث القوم جاءه رجل فقال : متى الساعة ؟ فمضى رسول الله ﷺ في حديثه حتى إذا قضاه قال : «أين السائل ؟ قال : هاأناذا يارسول الله ! قـال : إذا ضيعـت الأمانـة فانتظر السـاعة قـال : وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» .

ومـع أن الخيانات الاجتماعية والسياسـية ضاربة الجذور في تاريخنا إلا أنها ستزداد فشوا وعتوا في الأعصار الأخيرة .

وقد وردت أحداث بين يدي الساعة نحب أن نشرح بعضها ! مـن ذلك نزول عيسـى بن مريم ، وعيسـى بشـر كريم ، ونحن المسلمين نرفض أن يكون إلها أو ابن إله ، وكتابنا يقول فيه :

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الزخرف : ٥٩)

ثم يقول :

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (الزخرف : ٦١)

وهذا تلميح إلى نزول عيسـى قبيل الساعة ، بيد أن السنة جـاء بها تصريح واضح قال رسـول الله ﷺ : «والذى نفسـى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية» (مسند أحمد)

ولماذا ينزل ؟ ينزل ليكذب بنفسـه من زعموه إلها ، وهم جماهير غفيرة !

وفي حديث آخر أنه سـينزل بين المسـلمين ـ وهم أتباعه






الحقيقيون ـ فيقاتل معهم الصليبيين، حتى يهزمهم، ويسقط دولتهم، عن جابر بن عبد الله، قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى بن مريم، فيقول له أميرهم: تعال صل بنا ـ يعرض عليه إمامة المسلمين ـ فيقول عيسى: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله تعالى لهذه الأمة» (مسند أحمد).

والحديث يشير إلى أن الإسلام خاتم الرسالات، وأن عيسى لن يجيء بجديد!

ومن الأحداث المروية بين يدي الساعة ظهور الدجال الأكبر الذي يختم طائفة من الدجالين الكذبة أدعياء النبوة والمهدية الذين يزعمون أن لهم بالله علاقة، وأنهم يتحدثون بوحي منه! وفي الحديث: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله» (مسند أحمد).

والدجال الأخير رجل من اليهود أوتي علما وقدرة، وربما ادعى الألوهية، وليس ذلك غريبا فإن المدعو (بالبهاء)، زعم أن الله حل فيه، وأنه مجلى الألوهية الهادية، وأن إنكار ذلك نوع من الكفر الذي حذر منه القرآن في الآية الكريمة:

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾

(النساء: ١٥٠)

فالتفريق عدم الإيمان بالحلول!

وفي السنة تحذير من الدجال ومخرقته، وتخويف من أتباعه، ولفت إلى أنه سيكون شخصا أعور مقبوح الهيئة.





وقد وردت أحاديث كثيرة في فتنة هذا الدجال تحتاج إلى بحث خاص، والذي يهمني هنا حديث: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين».. وفيه «أنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابا كلهم يدعي أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»(مسند أحمد).

العدد للتكثير، والذين ادعوا أنهم أصحاب وحي كي يقودوا الناس باسم الدين جم غفير وليس بعد خاتم المرسلين وحي، إن المحتالين باسم الدين أكثر من المحتالين طلبا للدنيا، ويغلب أن يلتف بهم أتباع واهمون مسحورون ينسبون لهم خوارق عادات، ويطلبون لهم طاعة عمياء، وديننا قوامه العقل، ومعجزته إنسانية خالدة.

والأئمة المضلون هم الخلفاء الظلمة والملوك المستبدون، وهؤلاء منذ ظهروا بدأ خط الانحراف في تاريخنا فانفصل العلم عن الحكم أو انفصلت السياسة عن الثقافة.

ثم انشعبت المعرفة الدينية شعبتين بعدما توحدت زمانا، فإذا متصوفون لا فقه لهم، وفقهاء لا قلوب لهم!

وصحب هؤلاء وأولئك قصور شائن في علوم الحياة وشئون الدنيا فكان لابد أن تركع الأمة أمام أعدائها بعدما انهارت ماديا وأدبيا! وأذكر أن صديقا قال لي: إن الأوروبيين والأمريكيين يكرهون اليهود، ولكنهم يحتقرون العرب!! وماذا لدينا يستدعي الاحترام..

في تلك الحال يذكر حديث عن رسول الله ﷺ «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: أمن قلة نحن يومئذ؟ قال: لا، بل أنتم يومئذ كثير،





ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن!، قيل: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت» (سنن أبى داود)!

ومن علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا» (مسند أحمد).

إن الرتابة التي يتسم بها النظام الكوني خدعت البله فلم يبصروا الرب المدبر، والسيد المشرف، فأخذوا يقولون: هذه طبيعة الأمور وكان ينبغي أن تكون لهم قلوب يفقهون بها.

فلما زالت الرتابة المألوفة صاحوا دهشين: عرفنا صاحب هذا النظام المحكم!! وهيهات هيهات! إنه لا قيمة للامتحان بعد ما انكشفت الأسئلة!

بعد هذا الانقلاب الفلكي لا يقبل من كافر إيمان، ولا من فاسد صلاح!.

وطلوع الشمس من مغربها أو من مشرقها سواء لدى القدرة العليا، فإن الكواكب المتهادية في فضائها، تتحرك وفق مشيئة خالقها ومسخرها، بإذنه تنطلق، وبمشيئته تنطفئ يوم يسلبها نورها وحرارتها.

متى ذلك؟ عند قيام الساعة:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ (التكوير: ١، ٢)





٦٤ - هل ينبغي في عصر تفجير الذرة وغزو الفضاء أن نقدم الولاء للإنسانية ونؤخر الولاء للدين؟

يظن كثير من الناس أن هذا العصر ليس عصر الأديان، بما توحي به كلمة دين من تعصب خاص، وأفق محدود، ورباط بالماضي، وتجهم لما لم نألف..!! ويقولون: هذا العصر عصر الإنسانية العامة، ذات المعالم المطلقة والانفتاح على الآخرين إنه عصر هيئة الأمم، والميثاق العالمي لحقوق الإنسان، والدعوات التي تتسامى على الأجناس والألوان والقوميات والأديان!

والواقع أن التفكير السائد هو أن القرن الخامس عشر للهجرة أو العشرين للميلاد هو القرن الذي انسحبت فيه الأديان، وتركت الزمام لمبادئ أخرى تقود العالم، وعلى المتدينين الاكتفاء باللقاء العاطفي في معابدهم وعدم شغل الناس بقضاياهم القديمة هذا الكلام خدعة كبرى لا أصل لها، بل هو زيف من ألفه إلى يائه.

إنه من مكر الطوائف الأخرى بنا، حتى تبني وجودها على رفاتنا، وتستطيع أن تملأ الفراغ الحادث بعد ذهابنا.

إن هذه الأيام العجيبة تشهد انطلاق أديان كانت مقيدة! وعقائد كانت جامدة، بل لقد تحرك مزهوًا من كان أمله أن يدفع العار عن نفسه، وحسبه أن يظفر بحق الحياة المجردة!

لننظر إلى اليهودية التي سلخت من عمر الزمان فوق




الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

ثلاثين قرنًا، هل وجدت أزهى من هذا العصر؟ إن العالم أجمع يستمع إليها، وينصت لأسلوبها في عرض الأمور!

هل استطاعت اليهودية خلال عشرة قرون أو عشرين قرنًا أن تجمع فلولها من أقطار الأرض، وأن تقيم لها دولة على أنقاضنا؟ وأن ترفض بصلف رجاء الراجين أن تسمح للعرب بإقامة دويلة إلى جوارها؟

لقد انتهت قصة اليهودي التائه، وبدأت قصة العربي التائه.

بدأت مأساة لاجئين، جمهرتهم الكبرى من المسلمين، يطاردون من قطر إلى قطر، لأن «هويتهم» سرقت منهم تحت الشمس، ومنحتها هيئة الأمم لأبناء التوراة، ورأت ذلك هو الإنسانية الصحيحة.

أفذلك ما نكلف بقبوله وإلا صرنا مسلمين متعصبين؟ نعمل ضد الإنسانية! ألا قبحًا لهذا المنطق.

ولنترك أهل الكتاب! ولننظر بعيدًا إلى ديار البوذية والهندوكية، إن الديانتين الوثنيتين في عصرهما الذهبي الآن ما بلغتا هذه الذروة يوما ما..!!

يعرف دارسو الملل والنحل أن بوذا لم يرفع بصره يومًا إلى السماء لا داعيًا ولا خاشيا، لأنه لا يؤمن إلا بالأرض وما عليها وقد وضع لأتباعه تعاليم حسنة ليعيشوا بها!

فلما مات جعله هؤلاء الأتباع إلها، وجعلوا تعاليمه توراة وإنجيلا وقرآنا، وأصبحت البوذية دينا! ما أغرب نقائض البشر!






ورأيت القباب الذاهبة في الفضاء تحتها تماثيل لبوذا جالسا يفكر ! والألوف من العابدين يزدلفون حوله، إن الدول الغربية أعانت هؤلاء على مطاردة الإسلام وطي راياته عن أقطار كثيرة، فالوثنية - من الناحية الإنسانية - أفضل من الإسلام !

أما الهنادك فهوايتهم المفضلة مطاردة المسلمين حيث كانوا ! إنهم يقدسون الأبقار، والجراثيم الشيء الذي يستحق الموت هم المسلمون، وأقرأ الآن وأنا أكتب هذه السطور - كيف قتل أكثر من خمسة آلاف طفل وامرأة رميا بالسهام أو ضربًا بالفئوس أو حرقًا بالنيران، مما جعل مئات الألوف تفر حذر الموت إلى جبال «الهيملايا» ذلك كله في ولاية واحدة، ولاية «آسام».

تلك هي الإنسانية في عصرنا الحديث ! إن رنين الكلمة المزيفة يقرع الآذان، ويثير الغثيان ! !

إنني باسم الإسلام وأمته على استعداد كامل للحفاوة بهذه الكلمة يوم تكون عنوانًا له موضوع، وعندما أفعل ذلك فأنا أوفى لديني ولا أخرج عليه، بل أعد من الولاء لديني أن أحسِّن الحسن، وأقبِّح القبيح، وأدفع عن المظلوم، وأنشر الرحمة، وأقيم العدل، وأرق للحيوان بله الإنسان أيًا كان لونه ودينه ! !

إنني أعرف من ديني أن الله يقبل دعوة المظلوم ولو كانت من كافر !





وأعرف من ديني أن حلفًا شريفًا تم في الجاهلية الأولى، قال النبي الكريم عنه «لو دُعيت به في الإسلام لأجبت»!!.. إنه حلف الفضول للحفاظ على الحقوق ونجدة المستضعفين.

وعلى ضوء ذلك أعلن احترامي الشديد للجنة العفو الدولية التي تقف بجهدها ضد العدوان، وتكشف أصحابه، وتؤلب عليهم ذوي الضمائر الحية في هذه الدنيا.. وأؤيد من أعماقي حسن معاملة الأسرى وأعلن الحرب على الرق الفردي والجماعي وعلى التفرقة العنصرية بجميع صورها.

معنى أنني مسلم أنني أعتنق دينًا طبيعيًا، يحترم الفطرة البشرية ونوازعها الطيبة ويحترم العقل الإنساني وأحكامه المنطقية، ويتوقع الخطأ ولا يحكم على مقترفه بالموت، بل يمهد له طريق التوبة ويفتح أمامه أبواب الرجاء، ويلحظ حكم القدر في اختلاف الأديان فيدعو إلى رأيه بالحكمة والموعظة الحسنة ويرفض الفتنة والقسوة.. تلك هي الإنسانية التي نحبها ونراها امتدادًا لرسالة الله، ومرادفًا للإسلام.







٦٥- أصحيح أن الفتوح الإسلامية تعود إلى عوامل قومية أكثر مما تعود إلى عوامل اقتصادية أو دينية؟

لا ريب أن الفتوح الإسلامية كانت شيئًا خارقًا للعادات، ولو أنك سألت أعرابيًا قبل بعثة محمد أو إبانها: هل تفكرون في غزو فارس أو الروم؟ لظن بك مسًّا!!.

إن هذا يشبه أحلام النيام! إنه كالهبوط إلى القمر بغير وسائل علمية!!

لكن الواقع لا يمكن إنكاره... إن العرب - بعدما أسلموا - هزموا الفرس والروم معًا في جبهتين متعاصرتين، واحتلوا بلادهم في وقت واحد.. إن القبائل الهائمة على وجهها في صحراء الجزيرة قامت لها فجأة دولةتحت علم التوحيد، لم تسلخ من عمرها بضع سنين بعد وفاة صاحب الرسالة حتى شرعت تصارع الدولتين العملاقتين، وتلحق بهما هزائم أبدية!.

ماذا حدث في دنيا الناس؟ إنها معجزة ما عرف خبرها إلا محمد وحده، الذي أقسم بربه أن تُنْفَقَ كنوزها في سبيل الله قال عليه الصلاة والسلام: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، فوالذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله تعالى»(مسند أحمد)!!

إن الإنسان الملهم العابد المجاهد هو صاحب هذا التغيير الحاسم في تاريخ البشر، لقد جعل القمم سفوحا والسفوح قممًا، وبين أن الهمل يستطيعون الوصول إلى أعلى السلم





بالعلم والتربية، وأن الملوك يتحولون إلى عبيد بالترف والمعصية.

ولقد ثبت لكل ذي بصيرة أن محمدًا وحده هو الإنسان الأول أو القمة الأولى في تاريخ الحياة من أزلها إلى أبدها.

غير أن أغلب المستشرقين أبى الاعتراف بهذه الحقيقة ورأى أن يلتمس تفسيرًا لما حدث فقال: إن جفافًا سيئًا حل بجزيرة العرب على عهد البعثة المحمدية وعقبها جعل العرب يتحولون إلى جيرانهم زرافات ووحدانا يطلبون القوت، ويفرون من المجاعة إلى أرض الهلال الخصيب في سوريا والعراق!

ويبدو أن خبر هذه المجاعة العربية نما إلى المستشرقين وحدهم فلم يذكره أحد من الناس!

ولنفرض جدلا أن مجاعة وقعت! هل إذا حل قحط بسويسرا أغارت عسكريًا على روسيا والولايات المتحدة ابتغاء القوت؟ لماذا قلت: سويسرا؟ هل إذا حل قحط بالكونغو ناوشت الدولتين العظميين في العالم، واحتل أرضهما سعيا وراء الرزق؟ هذا تفكير سكارى!

ثم تذكرت أن في كتبنا القديمة كلاما قد يكون من وراء هذا الهذيان، قرأت في وصف إحدى المعارك بفارس أن المسلمين بعد انتصارهم استولوا على غنائم كثيرة من بينها فطائر ورقائق، فقال أحد الجنود: لو لم نقاتلهم على هذا الدين لقاتلناهم على هذا الرقاق!!





قلت ساعتها : هذه نكتة مثل ما يصدر عنا نحن المصريين من دعابات ! ولم أكن أدري أن الأب (لامانس) سيتخذ من هذا الكلام دليلا على أن للفتح العربي أسبابًا اقتصادية ! !

ومثل ذلك ما قاله (رستم) للمغيرة بن شعبة في أثناء المفاوضات بين الفرس والعرب : قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ، ونصرفكم ببعض ما تحبون ، وهذا كلام هزل ! فإن «رستم» يعلم أن كتابًا جاء سيدَه كسرى من بضع سنين يدعوه إلى الإسلام ، مرسله هو محمد عليه الصلاة والسلام وأن أتباع هذا النبي جاءوا اليوم بالدعوة ذاتها ، وهم مستعدون للعودة إلى بلادهم إذا ما اقتنع الفرس بها .

فما مكان هذا الطعام المعروض ؟ ومن الذي طلبه ؟ ومن الذي يقبله ؟ إنه كلام هزل ! .

وكتب التاريخ لدينا تروي الغث والسمين ، وقد نبه الطبري قراءه إلى ذلك ، حتى لا يخدعوا بكل ما يرويه ، ولو صدقنا جدلا ما حكاه الطبري - بسند تافه - أن خالد بن الوليد قال لرجاله : ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب ؟ بالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولو لم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ! ونولي الجوع والإقلال من تولاه ممن اثَّاقل عما أنتم فيه ! !

إن هذا الكلام - لو صح - لكان ضربًا من المزاح أو






لفت النظر إلى ما في أيدي الكافرين من نعماء ليسوا أهلا لها ؛ لأنهم لم يشكروا الله عليها ، ولم يؤدوا حقه فيها . . ويستحيل أخذ العبارة على ظاهرها القريب ؛ لأن الأدلة قائمة أمام عيون المؤمنين على أن القتال طلبا للغنيمة جريمة ، وأن المجرمين لا يفتح لهم ولا يفتح عليهم ، فعن أبي هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله ، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضًا من الدنيا ! فقال : «لا أجر له ! فأعاد عليه ثلاثًا ، كل ذلك يقول : لا أجر له» (مسند أحمد) .

وروى مسلم في صحيحه خبر أول ثلاثة يدخلون النار يوم القيامة ، وبعد أن ذكر القارئ المرائي والمتصدق قال : «ثم يؤتى بالذي قتل في سبيل الله ، فيقول الله له : فبماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت ! فيقول الله تعالى له : كذبت وتقول له الملائكة : كذبت ! يقول الله له : بل أردت أن يقال : فلان جريء ! وقد قيل ذلك ثم ضرب رسول الله على ركبة أبي هريرة فقال : يا أبا هريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»(سنن الترمذى) .

قال شفي الأصبحي : فأخبرت بهذا الحديث معاوية ، فبكى بكاء شديدًا حتى ظن أنه هالك ! وقال : قد فعل بهؤلاء ذلك فكيف بمن بقي من الناس ؟ وتلا قوله تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا




ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

(هود: ١٥ ، ١٦)

إن الصحابة جميعًا، والتابعين معهم، يعلمون أن القتال طلبا لمغنم دنيوي مهلكة للدين، ومن ثم خرجوا للجهاد، ونفوسهم خالية من طلب الدنيا، مقبلة على طلب الآخرة، وذاك سر فلاحهم ونصرهم على عدوهم.

هناك عقد فادح الثمن بين المؤمنين وربهم ولكنه جليل العوض، يقدمون حياتهم له ويمنحهم الجنة في مقابله، ومن طلب عظيمًا خاطر بعظيمته

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ ﴾

(التوبة: ١١١)

إن الإيمان حول أصحابه إلى زلازل وبراكين أتت على الشرك من القواعد! فإذا قيل: يا خيل الله اركبي، وإلى الله ارغبي.. رأيت الرجال يتسابقون إلى الموت موقنين بأن بعده الجنة.

وقد يكون أحدهم شيخًا كبيرًا أثقلت جسمه السنون، فإذا سمع النداء تحامل على نفسه ليؤدي واجبه، فيقول له بنوه إن الله عذرك! ونحن نجاهد عنك! فيقول: كيف عذرني وهو القائل:





﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾

(التوبة: ٤١)

إن الشاب والشيخ، المثقل والمخفف، سواء في ضرورة الجهاد! الحق أن الوثنيات الدينية والسياسية والاقتصادية لم تجد فؤادًا أشجع ولا ذراعًا أشد، من فؤاد محمد وذراعه.

لقد حشد ضد هذه الوثنيات الجموع، ورمى طواغيتها بالأبطال، وأخذ يقول لهم: «من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة».. «رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل»(مسند أحمد).. «ما من مكلوم جريح يكلم في سبيل الله إلا جاء، يوم القيامة وكلمه - جرحه - يدمي، اللون لون الدم والريح ريح المسك».. «لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبدا!» (مسند أحمد) «لا يجتمع في جوف عبد غبار في سبيل الله وفيح جهنم ولا يجتمع في قلب عبد الإيمان والشح» (مسند أحمد).. «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» (سنن أبي داود).. «ألا أخبركم بخير الناس؟ وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلًا عمل في سبيل الله، على ظهر فرسه أو ظهر بعيره، حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلًا يقرأ كتاب الله لا يرعوي بشيء منه» (مسند أحمد)!

يقول المغيرة بن شعبة للفرس: أخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا: أنه من قتل منا صار إلى الجنة(صحيح البخارى)! فنحن أحب في الموت منكم في الحياة!





بهذه التوجيهات وتلك المشاعر بدأ الهجوم على قوى الكفر والعدوان، فإذا الدول الكبرى التي غالبت الزمن وطاولت التاريخ تترنح وتتراجع ثم تهوي ! !

وجماعة المستشرقين دون مستوى الوعي بهذه الحقائق، فهم ما عرفوا - في ظل الاستعمار - إلا حروب النهب والسلب، والأحقاد والأطماع، ولذلك يتحدثون عن محمد وصحبه حديث السكارى عن الملأ الأعلى.

ثم ظهر بدع مضحك يقول للناس: إن العروبة من وراء الفتوح العظيمة في فارس والروم! أي عروبة؟ كان العرب غربي فارس أذنابا لكسرى واسمهم المناذرة، وكانوا جنوبي الروم أذنابا لقيصر واسمهم الغساسنة، وكانوا في قلب الجزيرة يسمعون عن الروم والفرس كما يسمع الحمالون عن ركاب الدرجة الممتازة في السكك الحديدية ! ! إن العرب قبل الإسلام ومن غير الإسلام ما كانوا شيئًا ولن يكونوا شيئًا وسنزيد ذلك بيانا في الإجابة التالية.



٦٦- يدرس الآن في بعض الجامعات أن القومية العربية هي العامل الأول في نجاح الفتح الإسلامي وهزيمة الفرس والروم، فما مدى الصحة في هذا القول؟

هذا الكلام أقرب إلى الهزل منه إلى الجد، بل يمكن وصفه بأنه جريمة علمية ومحاولة لتزوير التاريخ وقلب حقائقه.

وقد استمعنا إلى أوصاف محدودة توجه النفوس إلى هذا الغرض، وتجاوزناها لتفاهتها، ثم تبين لنا أن هناك خطة مرسومة متعمدة للنيل من الإسلام وتاريخه!!

من ذلك وصف السلطان المظفر قاهر التتار (قطز) بأنه بطل القومية العربية!

والرجل ما عرف قط هذه الكلمة، ولا خطرت له ببال، فهو- باسم الإسلام وحده- قاد المسلمين من عرب وترك لمواجهة التتار وأوقف تقدمهم إلى مصر، وكان حماسه لدينه وحبه له بارزين في سيرته، فلما رأى الجيش المصري يضطرب عند الاصطدام بالعدو صرخ صرخته المشهورة، واإسلاماه! فكانت مفتاح النصر، وسر انكسار التتار للمرة الأولى في تاريخهم العسكري.

ومعروف أنه من تركستان لا من جزيرة العرب، ومع ذلك فقد كتب على مسجده أنه بطل القومية العربية!!

ومثل ذلك الكذب وصف صلاح الدين الأيوبي بأنه بطل العروبة! والرجل مسلم كردي الأصل دعاه دينه وإخلاصه







لله ورسوله إلى محاربة الصليبيين حتى أجلاهم عن بيت المقدس وأعاده للعرب المطرودين منه وذلك باسم الإسلام الذي لا يعرف غيره !

والواقع أن فكرة القومية عرفتها أوروبا في القرنين الأخيرين فقط، ثم نقلها الاستعمار الثقافي إلى بلادنا ليطيح بوحدتها الكبرى، فالقول بأن العرب عرفوها وقاتلوا باسمها الروم والفرس ضرب من الهراء الموغل في السخف.

ونذكر هنا بعض الحقائق التاريخية أن العرب المتنصرين سواء من كان منهم تابعًا للروم، أو الفرس، أو قاطنًا شمالي جزيرة العرب، هؤلاء كانوا من أسوأ الناس معاملة للمسلمين، وتحاملًا عليهم.

فرسل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، عادوا جميعًا إلى المدينة سالمين، فلم يقتل إلا الرجل الذي بعث إلى الأمير الغساني المتنصر (شرحبيل بن عمرو) ! وهناك أمير عربي نصراني آخر شرع يعد العدة لمهاجمة المسلمين في المدينة مما عجل بمعركة مؤتة !

ويذكر التاريخ أنه عندما أمر النبي ﷺ بمقاطعة كعب بن مالك، أحد الثلاثة الذين خلفوا في معركة تبوك، أرسل إليه الأمير النصراني يستضيفه ويغريه بترك المدينة ونبذ الإسلام !

وقد ارتد إلى النصرانية جبلة بن الأيهم، وأبى قبول الاقتصاص منه في مخالفة ارتكبها، وآثر ترك العرب



والمسلمين واللحاق بالروم، فأين منطق القومية في هذه الأحداث كلها؟

إن العرب النصارى لم يدخروا جهدًا في النيل من الإسلام ووقف تقدمه مؤيدين في ذلك الروم والفرس جميعًا!!

ونسأل: أكان الروم أو الفرس يكنون للعرب احترامًا؟ كلّا، لما جاء كتاب النبي ﷺ إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام غضب غضبًا شديدًا وقال: «يكتب إليَّ هذا وهو عبدي»؟ الكلمة نفسها التي قالها فرعون لما عرض عليه موسى وهارون عبادة الله الواحد

﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾

(المؤمنون: ٤٧)

كان الفرس يحتقرون العرب كما كان المصريون يحتقرون اليهود، إن الإسلام وحده هو الذي رفع العرب إلى مستوى آخر، جعلهم أساتذة يعلمون الفرس والروم، ويحاولون نقلهم من الظلمة إلى النور، فأين هذه القومية التي يفخر بها العرب، ويردون إليها انتصارهم على الدولتين العظميين؟

كان عرب العراق يقاومون الفتح الإسلامي مع الفرس، فلما هزمهم خالد بن الوليد كان يسائلهم: أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أم عجم؟ فما تنقمون من العدل والإنصاف؟ فأين هذه القومية المزعومة؟



لقد غلبتني الدهشة وأنا أقرأ لأستاذ[1] جامعي يكتب لطلابه: «إن العامل الرئيسي للفتوحات الإسلامية هو عامل قومي أساسه نضج قومية العرب! وارتفاع روحهم المعنوية بعد استرجاع وحدتهم التي هددتها حركة الردة»!!

هل حركة الردة كانت تهديدًا للقومية العربية، والوحدة العربية؟؟ أم كانت انتفاضًا على الإسلام وتكذيبًا للوحي وعودًا إلى الجاهلية؟

أجدني مضطرًا لمصارحة العرب- وهم قومي التائهون- بجملة حقائق ثقيلة!.

إنني ألمح مظاهر ردة أنكى من الردة الأولى تبغي الولاء للجنس وتأبى الولاء للإسلام!.

ليكن! فحاجة العرب للإسلام أشد من حاجة الإسلام للعرب، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤)

وعندما يقع هذا فسينتصب لمساندة الدين قوم أولى بالله منهم، وأحق بالكرامة

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾

(محمد: ٣٨)

﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾

(المائدة: ٥٤)

---

(١) كتاب تاريخ الدولة العربية للدكتور/ السيد عبد العزيز



إنني مصري عربني الإسلام، ولولا لغة الوحي ما كانت لي صلة بالعرب، اللغة، وحدها لا الدم أو العرق أو الجلد تُنْميني إلى هذا الجنس! وما يسرني أن أكون هاشميا، إذ الشرف عندي هو الإسلام وحسب! وكما قيل:

ليس الأعاريب عند الله من أحد!!

والجيل الذي رباه محمد ﷺ هو خير القرون، وشرف الإنسانية كلها؛ لأنه الجيل الذي اعتز بالإسلام وحمل لواءه، وبلغ رسالته، والذي رفض أن يقدم على العقيدة أي شيء آخر ولو كان الآباء والأبناء.

لقد كان الوحي الإلهي برنامجه الملتزم، وثقته الوحيدة ثم خلفت خلوف تقبل الوحي على إغماض وتكلف، وتكره الانتماء إلى الدين وتحب الانتماء إلى العروبة! وعند وزن البشر بإنتاجهم المادي والمعنوي تطيش كفة هؤلاء، وتود الأرض لو صفرت منهم، فما يصلحون إلا علفًا لمدافع الغزاة!!

لما كان الإسلام دينًا عالميًا فقد دخلت فيه أجناس كثيرة، استفادت منه وأفادته! ووسعت رقعته على ظهر الأرض، وعمقت ثقافته وحفظتها وورثتها الأجيال المقبلة، وبذلت المال والدم في سبيل عقائدها، ولا تزال تجاهد دونها إلى يوم الناس هذا وصحابة محمد عليه الصلاة والسلام هم أزكى أتباعه وأطهرهم، وأجدرهم بالتكرم والتأسي.

بيد أننا نلحظ أن العرب- حاشا الصحابة وتابعيهم



بإِحسان- كانوا كالوارث المعتمد على جهد أبيه ومدخراته، أخذوا أكثر مما أعطوا، وتشبعوا من الدنيا باسم الدين، وطلبوا من الناس أن يحملوهم ويقبلوهم مع الإِسلام نفسه!

ففرضوا خصائصهم العرقية على هدايات اللّٰه، وتقاليدهم الجاهلية والقبلية على حقائق الفطرة.

فكان الملك العضوض أيام الأمويين! وكانت الخلافة الكاهنة أيام العباسيين والفاطميين! وكان احتقار الحرف والصناعات، وكان الافتخار بالأصل والعزوة! وكان احتقار النساء- بعد وأدهم في الجاهلية- ومضى الانحراف إلى العصر السابق فخان العربُ التركَ حتى جعلوهم يرمون الخلافة في البحر، ثم كانت الطامة الكبرى إذ ظهرت العروبة متخففة من الإِسلام أو مستنكرة له، يقودها من لا علاقة له باللّٰه أبدًا.

ويوم نقول: إن القومية العربية هي السبب الأعظم في نجاح الفتح الإِسلامي الأول، فمعنى ذلك أن عقائد الإِسلام وفضائله وحاجة العالم إليه أمور ثانوية أو وهمية!

ومن ثم يفقد الإِسلام أمجاده التاريخية، كما فقد وجوده التشريعي والتربوي في الحاضر المهزوم!

لا يجوز للجنس العربي أن يعدو قدره، ويفتات على غيره، وينسى أن الإِسلام ولي نعمته ومقيم دولته، وحافظ كيانه وداعم أركانه!

إن شعوب العالم فتحت أحضانها لحملة التوحيد النقي والأخوة الجامعة، ومبدأ (المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى





بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم) ولم تفتح أحضانها لنعرة جنسية أو عزوة أموية أو عباسية، أو أعراف بدوية وأوهام صحراوية. كانت (قادسية) سعد بن أبي وقاص معبرًا لأركان الإيمان وحقوق الإنسان، ونظام الشورى، وإقامة العدل، بعد إطفاء المجوسية الخربة، ومحو الاستعباد السياسي وإخراج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام !

لا كرامة للعرب بدون إسلام:

ونعود بتفصيل قليل إلى تاريخ العرب إبان الفتوح، و نسأل : هل انقض العرب الخاضعون للروم، أو الخاضعون للفرس على الفرس حين وجدوا عرب الجزيرة يشتبكون مع أعدائهم ؟

إن هذا أول ما يرتقب منهم تلبية لنداء العروبة ! لكن شيئًا من هذا لم يحدث قط !

ونسأل ثانية : هل استقبل أولئك الخاضعون إخوانهم القادمين بشيء من الترحاب، وذاك أيسر ما يبذلون لو كان للعروبة قومية ملحوظة ؟ لم يقع شيء من ذلك !

الذي وقع أن العرب المستتبعين قاوموا العرب الفاتحين بكل ما لديهم من وسع !

ولنلق نظرة على الجبهة الرومانية، في موقعة اليرموك التي أجهزت على الوجود الأجنبي بالشام فنرى جبلة بن الأيهم يقود الألوف من النصارى العرب، مقاتلا مع الرومان أنفسهم ورابطًا مصيره بمصيرهم !






إن كرهـه لعمـر بن الخطاب رسَـب في أعماقـه لأن عمر رفض الاعتـراف له بامتيـازات الإمارة، ورأى أن يسـوي بينه وبين أعرابـي من عامة الناس فارتد إلى النصرانية، وتألب مع القبائل التي على دينه ضد عقيدة التوحيد للخالق والمساواة. بين الناس.. فأين هي القومية العربية؟ التي حاربت الروم؟

وقبل ذلك بسـنين كانت معركة مؤتة التي حاول فيها مئة ألف من النصارى العرب ومعهم مثلهم من الرومان أن يفتكوا بالجيش الإسلامي القليل العدد، الجيش الذي حركه الغضب لأن هؤلاء العرب أذناب الرومان قتلوا بطريقة سـافلة رسـولا للنبي ﷺ أرسله إلى أحد أمرائهم.

كاد هذا الجيش أن يذوب لولا انسـحاب خالد بن الوليد! وسبب المعركة، ما ذكرناه آنفًا، قال الأمير الغساني للحارث بـن عمـرو- رسـول النبـي لتبليغ الدعـوة- لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم! فشد وثاقه، ثم ضرب عنقه بالسيف!

فأين هي آصرة القومية التي تجمع بين المسلمين والعرب الخاضعيـن للـروم؟ إن الأمـر بلـغ حـدًا من الهزل يسـتحق الدهشـة، أي قومية يعنـون؟ ونذهب إلى جبهـة فارس فماذا نـرى؟ نرى عـرب العـراق ينضمون إلـى مجوس فـارس في مقاومـة الصحابة والتابعين، مع أن آخـر ملك لهؤلاء العرب مات في سجن كسرى! ولكنه الذل وقبول الدنية.

كانـت موقعة الولجة وأليس، على نهر الفرات من أقسـى المعـارك التـي خاضهـا العـرب المسـتتبعون مـع سـادتهم








المجـوس ضد زحف خالد ورجالـه ! حتى بلغ الغيظ من خالد مبلغه، وهو يرى بني جنسـه يكسوهم هذا الصغار ! فكان إذا ظفـر بهم يقول : أعرب ؟ فما تنقمون مـن العرب ؟ أم عجم ؟ فما تنقمون من العدل والإنصاف ؟

فكيـف يجيء بعد هذه الحقائـق الدامغة من يزعم زورًا أن هذه الحروب كانت تحررًا وطنيًا، أو ثورة قومية ! تعاون فيها عرب الشـام وعـرب العراق مع زملائهم عـرب الجزيرة ضد الروم والفرس ! !

إن الصحابـة والتابعين الذين خرجوا مـن المدينة المنورة كانـوا يحملـون حقًا رسـالة تحرير، لكنها للشـعوب كافة، لجماهيـر الفـرس والـروم والعـرب الذيـن طحنهـم الحكم الفـردي، وكبـل ضمائرهـم وحرمهـم الحقـوق الطبيعيـة للإنسان.

إن الإسـلام لـم يكن فـورة جنسـية، ولا نزعة اسـتقلالية عـن التدخل الأجنبـي، كما يريد نشـر ذلك المستشـرقون والمبشـرون والعروبيون ! إنه حركة إنسـانية عامة تعلو على الأقـوام والأوطان، تربـط الناس بربهم ليسـتهدوا به وحده، ويسـتلهموا منه وحده، وليكونوا في القارات كلها سواسـية في الكرامة والولاء، فلا سجود إلا لله ولا حكم إلا لله.

فـإن عقل ذلك العرب أفلحـوا، وإلا بادوا، وأتى الله بخير منهم في التأسي بمحمد ورفع لوائه !





٦٧- ألا يمكن ردم الفجوة بين السلف والخلف حتى تستطيع الأمة رد الغارات المتتابعة عليها؟

لا يوجد مسلم يحجب ولاءه عن السلف[١]، أو يرفض الاستقامة على نهجهم!

كيف وهم دعامة الدين وحرسه الشديد، وحاملوه إلينا نقيًا قويًا؟

إن التفاوت نشأ من القصور العقلي لدى الدهماء ومن إليهم، ومن ضعف الخلق -أو ضعف التقدير- عند بعض المشتغلين بالمعرفة الدينية، ولا يوجد قضايا جسيمة تقسم الأمة اليوم إلى سلف وخلف، وتتيح لأعدائها فرصة القضاء عليها.

ولأستعرض صورًا من الخلاف الناشئ، وانظر: أين هي الفجوة المزعومة؟

هل أتباع أحمد بن حنبل هم السلف، وغيرهم من الخلف؟ ما أظن عاقلًا يزعم هذا! قد يكون التفرق المذهبي والتعصب الأعمى لإمام بعينه بدعة لم يعرفها السلف! وهذا حق!

والعلاج أن تشيع في هدوء دراسة الفقه المقارن، وأن تبحث القضايا من خلال مراجعة واعية لكتاب الله وسنة رسوله، وأن يتم ذلك في بيئات متخصصة بعيدة عن هوس الدهماء.

ثم تقدم خلاصات عملية للجماهير مع ملاحظة:

---

(١) مراد الشيخ -طيب الله ثراه- بكلمة السلف هنا: الصحابة والتابعون لهم بإحسان لا الجماعات التي تطلق على أنفسها اليوم اسم السلف فتنبه!.





(أ) أن فقه الفروع ثانوي في رسم السلوك الإسلامي.

(ب) أن شغل العامة به لون من الثرثرة الدينية المعطلة للإنتاج، والمضعفة للطاقة على الجهاد.

(جـ) أن اتباع أي رأي لإمام ثقة-خطأ أم صوابًا في نظر الغير- لا حرج فيه، ولا يلد عداوة لأحد!

إن أولي الألباب أخذوا على عوام المسلمين قديمًا وحديثًا مغالاتهم الغريبة في فقه الفروع وإهمالهم لسلامة الأخلاق والقلوب، وتكاسلهم عن التفوق في شئون الدنيا وأسباب الحضارة، وهذا مسلك يودي بالدين كله.

وأمر آخر يثير البلبلة والفتنة! زيارة القبور والاستشفاع بأصحابها عند الله.

والحق أن الخاصة الأولى في الإسلام تعليق القلوب بالله وحده، وإسلام الوجوه إليه، والنظر إلى الأحياء والموتى على أنهم عبيد وحسب.

ولم يطلب الله مني وأنا أدعوه أن استظهر بأحد معي، أو استشفع إليه بمخلوق.

ولست أحب أن أعكر صفو التوحيد بمسلك سخيف.. وقد رأيت من بعض زوار الأضرحة ما يثير التقزز، ويوجب الإنكار.

والذي أراه أن تعليم هؤلاء قد يفتقر إلى جهد شديد، ولكنه واجب، بل هو متعين، وهو أولى وأجدى من تكفيرهم واستباحتهم واعتبار دارهم دار حرب!!



إنهم يكرهون التجسيد اليهودي، والتعديد النصراني، وأنواع الوثنيات البوذية والهندوكية والعربية القديمة، ويحرصون كل الحرص على انتمائهم الإسلامي، بل يقاتلون دونه بكل ما أوتوا !

فلماذا يحرص البعض على تكفيرهم ويعجز عن إرشادهم إلى المسلك ؟ أكاد أقول إن الحرص على تكفيرهم مرض نفسي لا يقل عن المرض الذي يعاني منه هؤلاء ! !

إن الإقناع أهم من التخويف، والدليل أجدى من السيف، وأنا أريد هداية الناس لا أسرهم !

ومن نظر إلى الدنيا على أنها مغنم له إذا انتصر، فهو قاطع طريق ! وليس داعيًا إلى الله، وهو أجهل الناس بسيرة محمد وشريعته !

وإذا كان القتال الغبي لا مساغ له من أجل العقيدة، فكيف إذا كان في سبيل نقاب يوضع على وجه امرأة أو غطاء يوضع على قافية الرأس، أو صورة ترسم على ورقة ؟

وعلى أية حال فمن الخير أن ينأى عن ميدان الدعوة الدينية أصحاب الأمزجة السوداوية والطباع الغضوب والمتلمسون للبرآء العيب !

وشيء أخير نثبته هنا . . لقد درسنا في الأزهر ونحن طلاب مذهبي السلف والخلف في آيات الصفات، أعني التفويض والتأويل، وتم ذلك دون تشنج أو توتر أعصاب، وترك لمن شاء أن يختار ما شاء من أقوال !



وقد اخترت رأي السلف لأنه في نظري أعرف بوظيفة العقل الإنساني وقدراته، ولأنه يسد الأبواب أمام مجالس الثرثرة الدينية التي تضيع الوقت سدى! ولأنه احترم مصادره الأصلية، وازدرى فكر اليونان!

ومع ذلك فقد تعمقت في فهم أفكار الخلف، وأستطيع القول بأن جمهرتهم حراص على توحيد الله وتوقيره! وأن دراستهم لابد منها في فهم الملل والنحل ومقارنة المذاهب، ولكن الأفضل الآن تحنيط هذه الدراسات ووضعها في المخازن للذكرى والتاريخ.

فالنزعة العقلية المعاصرة لا تحب أن تسمع بحثًا عن: هل الله عالم بذاته؟ أو بصفة زائدة على الذات؟ إن هذا اللون من الفكر أمسى لغوًا!

وعلى معتنقي فكر السلف أن يتجردوا لنصرة دينهم فالمدى فسيح! أما أن يعتبروا اعتناق الفكر السلفي هو نصرة الدين، وأن إلحاق هزائم بالأشاعرة قربى إلى الله، فذاك الآن نوع من البطالة!

قال لي صديق من نجد: نطاق العقائد أوسع مما ذكرت، والذين يقفون به عند هذه الحدود هم الذين لا يؤمنون بالوحيين معًا!

قلت دهشًا: ما تعني بالوحيين؟ قال: الكتاب والسنة! قلت: هذه تثنية مثيرة! فإن القرآن معجز تحدى الله به الإنس والجن! وهو مقطوع بثبوته كلمة كلمة! ولا كذلك السنة!






أكثر السنة أحاديث آحاد، يعمل بها في الفروع أما العقيدة فتحتاج إلى نص مستيقن ثابت بالتواتر!

والقرآن أصل الإسلام، والسنة فرع يجيء بعده، بيانًا وتفسيرًا..

قال: السنة مثل الكتاب في أنها مصدر للعقائد ما دام السند صحيحًا!

قلت: ما هي العقيدة التي ترى أنها ثبتت بحديث آحاد؟ وكُلِّفت الأمة جمعاء باعتناقها؟

فتروى قليلًا، ثم قال: ثبت في الصحاح أن الرسول ﷺ قال: «لا تمتلئ النار حتى يضع الله تبارك وتعالى فيها رجله فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله تعالى من خلقه أحدا، فالحديث أثبت صفة القدم!

قلت: هذا كلام باطل، إنك مع بعض السطحيين فهمتم أن «الرِجل» كلمة تعني العضو المعروف، وقد قال المفسرون: إن القدم ما يقدم للنار من الأشخاص الأراذل الذين يستحقونها، وارجع مثلا إلى تفسير القرطبي لترى أن القدم وكذلك الرجل مفرد أرجال: وأرجال يعني الأرتال، والمعنى معروف لدى العلماء.

فلا دلالة الحديث قطعية، ولا ثبوته قطعي، فكيف تنشئ عقيدة من ظن حائر؟

وما طولب عربي ولا رومي ولا عجمي باعتقاد أن لله قدمًا، فهل نأخذ الدين من سلفنا الأول أم نأخذه من عقولكم؟

راجعوا أنفسكم ليلتقي المؤمنون على كلمة لكم.





٦٨- ما حقيقة الملائكة والجن؟ وما علاقتهما بالإنسان؟

هذا ميدان شائك ! لأنه يتصل بعالم الغيب، ودرايتنا به قليلة، وسأنقل خطواتي بحذر، مستهديًا بما أملك من طاقة عقلية، وبما تيسر من تعاليم سماوية !

أؤكد أولًا أن الوجود أكبر من الإنسان ! وأن تصور الإنسان نفسه على أنه الكائن المحتكر للحياة ينطوي على غرور وجهالة، فالكون أكبر منا، وساكنوه أكثر عددًا، وأشد قوة !

وقد فهمت من القرآن الكريم أن الجن عالم برز إلى الحياة قبل الإنسان، وربما كُلِّف قبله... قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾

(الحجر: ٣٦، ٣٧)

ويبدو أن إبليس أبا الجن ضايقه هذا الكائن الجديد، وظنه منافسًا على مكانة استقرت له، فكره آدم وبنيه، وساءل الخالق معترضًا لم خلقت هذا الإنسان ذا الطبيعة الهشة؟ ولم أمرت بالسجود له؟ إنني أقدر منه وأصلب ! ولو أطلقنا في سباق لألحقن به وبأولاده شر هزيمة.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ





ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]

(الإسراء: ٦٢)

وإبليس بهذا التصرف أحمق! فليس له - وهو أحد العبيد المخلوقين لرب الأرض والسماء - أن يقف هذا الموقف، فلله أن يخلق ما يشاء، ولله أن يفضِّل ضعيفًا متواضعًا على متكبر! وما أدرى إبليس أن من أبناء منافسه من يبهر بحسن الطاعة وصدق العبودية، ويحطم ما يتعرضه من عقبات، حتى يرضى ربه بجدارة؟

على أن عالم الجن لم يمض كله في طريق إبليس، فقد بقي منه نفر كثير يعلن ولاءه لله، ويثابر على طاعته، ويؤدي التكاليف المطلوبة منه..

نعم في الجن ناس طيبون، يسبحون، بحمد ربهم وينكرون أن يكون له ولد، ويهتدون إلى الرشد وينفذون وصايا المرسلين، وهناك أيضا من واصلوا الحملات ضد آدم وبيه، واحتالوا طويلاً لإشقائهم وإفنائهم.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ

(١) لأحتنكن: لأستأصِلن.





أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾

(الجن: ١١ - ١٥)

والاحتكاك دائم بين ذرية إبليس وذرية آدم، فما طبيعة هذا الاحتكاك؟

الظاهر أن الشياطين - أعني الجن العصاة - ليس لهم أكثر من الوسوسة والاستغفال! ومع ضخامة قواهم المادية فهم مكفوفون عن استخدامها ضد بني آدم! إنهم يجيئون لمتردد فيغرونه بالجبن، ولمتوقح فيغرونه بالكبر، ولمتهافت على الشهوات فيغرونه بالفسق، وهكذا.

وعندما يوقف الكل للحساب، يقول الشيطان لمن أغراهم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾

(إبراهيم: ٢٢)

والقانون - كما قيل - لا يحمي المغفل، فإذا زاغ بشر فهو المسئول عن نفسه، وما يملك أحد إرغامه على عوج، ولو استخدم مواهبه ما قدر أحد على الضحك منه.

قد تكون قصتنا على ظهر الأرض هي قصة أبينا آدم أيام الجنة! إنه لو ظل ذاكرًا فلم ينس، قادرًا فلم يضعف لارتد





سهم إبليس إلى نحره ! ولكنه لم يكن عند حسن الظن .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾

(طه : ١١٥)

والذين ينزلقون في دنيانا وقع لهم ما وقع لخلل داخلي فيهم جعلهم يتجاوبون مع كيد الشيطان، وينخدعون بكذبه

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾

(سبأ : ٢٠ ، ٢١)

وعندما تقع رزيلة فلذة الشيطان منها الأز عليها وتزيينها، ذلك كل ما يشتهي ! أما الإنسان المجرم فلذته أكل حرام أو سرقة عرض أو ظلم ضعيف، وما يحس ـ مؤقتًا ـ بحلاوته لا يحس الشيطان شيئًا منه ولا يرى لذة فيه ! . .

فرحة الشيطان أن يرى الإنسان ساقطًا ذليلًا مغاضبًا لربه، ولذلك يقول الله لبني آدم موبخًا .

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾

(الكهف : ٥٠)

ويظهر أن للشياطين تخصصات شتى ! كما يظهر أن





بعضهم يلازم أنواعًا من البشر، ويقف نفسه على إغوائهم

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾

(الزخرف: ٣٦)

وإذا كان للعصاة قرناؤهم ومضللوهم، فإن الأقوياء ييأس الشيطان منهم

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾

(الحجر: ٤٢)

ونترك عالم الجن وعلاقته بالإنسان إلى عالم آخر أنقى وأطيب..

إن الإنس والجن جنسان مكلفان ممتحنان قادران على الخير والشر، والذكر والنسيان، من أجل ذلك يحصي الله عليهما نعمه ثم يقول:

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

(الرحمن: ١٦)

لكن هناك عالمًا آخر إرادته من إرادة الله، وحياته وقف على إنفاذ مشيئته، هو عالم الملائكة الذين يرنون دائمًا إلى أنوار الألوهية ويستغرقون في أمجادها، قال تعالى:

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾

(الأنبياء: ١٩، ٢٠)





ووظائف الملائكة كثيرة، وهم مع أبناء آدم من بدء تخلقه حتى يوارى في التراب ففي الحديث عن ابن مسعود قال: قال رسول ﷺ: إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات، يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح!!

وإذا صح أن نسمي هؤلاء الموكلين بالأرحام ملائكة الحياة، فهناك آخرون للوفاة:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة: ١١)

والمحيي المميت هو الله جل شأنه، وهو الذي يلهم ملائكته ويقدرهم على فعل ما يريد.

وقدرات الملائكة أعظم كثيرًا من قدرات الجن، وإذا كان العفريت يستطيع أن يلمس السماء، أو ينقل شيئًا من اليمن إلى فلسطين في ساعة، فإن الملائكة أوسع طاقة، وفيهم من يستطيع تطويق أعتى المردة، والهوي به إلى أسفل سافلين..

والملائكة يتابعون حياة البشر، ويسجلونها سواء كانت نيه في القلوب، أو كسبًا للجوارح، ويعني هذا بلا ريب رؤية عجيبة وصحوًا تامًا:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٧، ١٨)





وما يحتاج ربنا جل جلاله إلى من يعلمه أو يذكره! ولكن النظام الذي وضعه لكونه، أحصى فيه كل شيء من المخلوقات والأعمال

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

(يونس: ٦١)

والملائكة الكرام الكاتبون لا ينتهى لهم تسجيل، ولا يقف لهم إحصاء

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

(الرحمن: ٢٩، ٣٠)

والملائكة صديقة للمرء المؤمن تفرح بعبادته وتهش له، وإذا دخل المسجد للصلاة حفت به، وإذا جلس في طاعة الله شرعت تدعو له: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، وثبت أن لها نوبات في صلاتي الفجر والعصر، ثم تصعد إلى ربها تذكر له ما ترى، وهو أعلم به، ولكنه النظام الذي وضعه سبحانه.

في المحافل الجادة، وفي مجالس الخير تكون الملائكة بلطفها ودعائها مع المؤمنين، فربما قال أحدهم الكلمة يعينه عليها ملك كريم، وربما صاغ القصيدة في الدفاع عن الله ورسوله، يؤيده فيها الروح القدس ـ كبير الملائكة.

وفي الوقعات التي يصطرع فيها الحق والباطل، ويبيع جند الله أنفسهم لنصرة دينه، تتنزل الملائكة لتشجع وتلهم



﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال: ١٢)

في هـذا الحين تكون ملائكة أخرى لنـزع أرواح الكفرة، تتناولهما باللطمات ظهرًا لبطن:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾

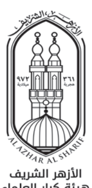
(الأنفال: ٥٠)

وهذا الكلام يحتاج إلى تفسير شامل، فإن الملائكة لم تعمد إلى سكير في حان؛ لتدعو له وتلتمس له المغفرة، بل دعت لامرئ يريد أن يتزكى، سعى إلى المسجد ليؤدي حق الله، وغالب أشغال العيش وأوقات اللهو، ورجح عليها ذكر ربه، فهو أهل لأن يصلي عليه الكرام الكاتبون.

كذلك لم تعمد الملائكة إلى جبان فار من الميدان لتسأل له التثبيت والرضا، وإنما دعت لرجل مؤمن هزم حب الحياة وآثر نصرة الله، فهو جدير بالإيناس والبشرى!

والأصل في هذا التفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠)





إن تنــزل الملائكة كما يفيــد ظاهر الآية في أحوال الحياة كلها، لا في الرمق الأخير وحده كما يرى البعض.

ويتضح ذلك عندما تعلم أن هذه الآية في مقابلة ما نزل في الغافلين المعوجِّين قبل ذلك مباشرة وهو قوله تعالى:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾

(فصلت: ٢٥)

فالأشــرار تؤزهم الشــياطين، والأخيار تؤيدهم الملائكة، والفريقان مسئولان برءوسهم عن نفوسهم، فهم ذوو عقول، ولهم إرادة حرة يحاسبون بها قبل أي شيء!..



٦٩- ما معنى أن لله تسعة وتسعين اسما وما مغزاها؟

في القرآن الكريم

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾

(طه : ٨)

وفيه كذلك

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

(الأعراف : ١٨٠)

المتأمل في هذه الأسماء يجدها صفات علا، ونعوت كمال وجلال وجمال.. والصفة تسمى اسمًا إذا دامت لصاحبها ولازمته فلم تنفك عنه كأنها أشبهت العلم الذي أطلق عليه وعرف به!

والأسماء الحسنى - بهذا المعنى - كثيرة، لأن معالم العظمة الإلهية ليست لها نهاية، وهي مبثوثة في القرآن كما تنبث النجوم في آفاق السماء - ولله المثل الأعلى - ويغلب أن تختتم بها آيات، ويختار الاسم، أو الأسماء الخاتمة من السياق الذي جاءت به الآيات.. وسنشرح ذلك بعد حين.

وجاء في الحديث الصحيح «إن لله تسعة وتسعين اسما، من حفظها دخل الجنة، إن الله وتر يحب الوتر»(مسند أحمد).. وفي رواية «من أحصاها دخل الجنة» (صحيح البخارى)، والمراد بالإحصاء ألا يقتصر في معرفة الله ودعائه





على بعض دون بعض، بل يعيها كلها، ويتعرف على الكمال الأعلى والعبودية الصحيحة من خلال مدارستها وإشراب القلب حقيقتها.

وليس المقصود أن الأسماء الحسنى محصورة في هذه التسعة والتسعين، فهي أكثر من ذلك.

والإسلام جاء لتصحيح أخطاء البشر في فهم الذات الأقدس، وتنزيهه عن أوهام القاصرين والجاهلين، فإن الأديان الأرضية أثبتت للألوهية صورة مشوهة منكورة يرفضها أولو الألباب الذين يدركون أن مبدع هذ الملكوت أعلى منها وأجل.. ثم جاء أهل الكتاب يتحدثون عن إله يتمدد واضعًا يده تحت قفاه، وواضعًا قدمًا على أخرى!! إله ينسى ويندم، ولا يدري خطورة تصرفاته!

وقد أُمر المسلمون أن يتركوا أولئك الملحدين في أسماء الله، وأن يعبدوا الله بأسمائه الحسنى وحدها.

وقارئ هذه الأسماء لا يفهمها إلا إذا عرف الكون والحياة، عرف هذه السماء المبنية، والأرض المفروشة، عرف قوافل الأحياء وهي تعبر عصرًا بعد عصر في طريقها إلى الدار الآخرة.

لا يمكن أن تتم معرفة الله بمعزل عن ملكوته الكبير، ومتابعة لقدره المحكم وهو يهزم وينصر ويضحك ويبكي، ويخفض ويرفع: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد: ٢)



والعارف بالله من خلال إحصائه للأسماء الحسنى، يعرف أن العالم كبير، ولكن خالقه أكبر منه ! وأن عقل الإنسان جهاز رائع، ولكن مبدع الألوف المؤلفة من العقول المنتشرة في القارات الموجودة من أزل الدنيا إلي أبدها - أروع وأوسع !

وماذا نقول ؟ إن الحشرة المتحركة على الثرى لا تدري : ما الإنسان، وما ذكاؤه ؟ وما الكون، وما أبعاده ؟ إن الكلمة لا تدري : ما كاتبها ؟ فكيف نعرف نحن التافهين كنه الذات العليا، وآماد عظمتها ؟

إننا في نطاق العبودية العاجزة نسبِّح بحمد الله ونتحدث عن مجده، ونعلن بصدق ولاءنا له وفقرنا إليه..

ولعلمائنا بعض التعليقات على الحديث الذي ذكر الأسماء التسعة والتسعين، قالوا : الأسماء المتقابلة لا ينبغي أن نذكرها مفردة، واقفين عند المعنى الذي لا نحب، كالضار النافع، والمعز المذل، والقابض الباسط.

فإن هذه الأسماء ذكرت بمعانيها المتضادة حتى يعلم البشر أن ما ينوبهم من خير وشر ليس بمعزل عن علم الله وتقديره ! وله جل شأنه أن يختبر عباده بما يسوء ويسر.. وعلى العبد أن يطلب كشف الضر ممن أرسله، ويغلب أن يكون نصاب المرء من عند نفسه وأنه حرم اللطف بسبب ما اقترفه، ومن ثم يطلب العفو والتجاوز.

ومن الأدب لذلك أن ينسب الخير لله، وينسب الشر لنفسه، وتأمل في دعاء الخليل :



﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ (الشعراء: ٧٨ ، ٨٠)

ولم يقل: أمرضني

وتوقف بعض العلماء عند اسم «المنتقم»، ورده قائلًا: لم يرد في الكتاب أو السنن الصحاح.

والذي ورد أن الله ذو انتقام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾

(آل عمران: ٤)

والفارق كبير بين العبارتين، إن الله لم يصف مكة بأنها قرية ظالمة عندما آذت المؤمنين قديمًا وإنما جاء في الآية ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾

(النساء: ٧٥)

وبين الوصفين تفاوت! والأسماء الحسنى تقريب للعظمة الإلهية من العقل الإنساني الكليل، ومن مشاعر البشر المأنوسة، وإلا فلا يعرف الله إلا الله، أو كما وصف رسوله محمد ﷺ: «سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»! (موطأ مالك)

ومن الحقائق التاريخية أنه لا يوجد إنسان أحسن تمجيد الله، وإجلاله مثل محمد عليه الصلاة والسلام، وكأنما عقد مسابقة بين أصحابه ليتنافسوا في الثناء على الله ومدحه والتزلف إليه واللهج بمحامده!





عن بريدة رضي الله عنه، سمع النبي ﷺ رجلًا يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.. فقال: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى» (مسند أحمد).

وعن أنس رضي الله عنه قال: دعا رجل فقال اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام يا حي يا قيوم، فقال النبي: «أتدرون بما دعا؟».. قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: «والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى» (مسند أحمد)!!

واسم الله الأعظم يبلغه العبد الذي ينبعث عن إخلاص عميق، ودعاء حار، والذي يجتهد في الثناء على الله بما يحفظ من صفاته وأمجاده.

وعن أنس «بينما رسول الله ﷺ يصلى إذ جاءه رجل قد حفزه النفس - أي يلهث وتتتابع أنفاسه - فقال: الله أكبر، والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه! فلما قضى الرسول الصلاة قال: أيكم المتكلم بالكلمات؟ فأرم القوم - أطرقوا سكوتًا - فقال الرسول: إنه لم يقل بأسا! فقال الرجل: أنا يا رسول الله، فقال: «لقد رأيت اثني عشر ملكا يبتدرونها، أيهم يرفعها إلى الله»(مسند أحمد).

وظاهر أن الصحابي القائل أنشأ الكلمة من بيانه! ولم





يسبق إليها . . ! إنها نضج الإيمان الذي تعلمه من نبيه فأطلق هذا الثناء والتكبير .

ومعرفة الأسماء الحسنى ليست تصورًا نظريًا للكمال الذي تومئ إليه ، إنها في إحساس المؤمن لابد أن تختلط بشئون الحياة التي يحياها وتملي عليه السلوك الذي يلائمها .

لاحظت أنه في أوائل سورة الحديد قرابة خمسةٍ وعشرين اسمًا ووصفًا لله تعالى ، تتابع سردها على نحو يثير الفؤاد !

ثم لاحظت كأن هذا كله كان تمهيدًا لتكاليف محددة من الإيمان والإنفاق والجهاد والهجرة بدأت بقوله تعالى :

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (الحديد : ٧)

إن إحصاء الأسماء الحسنى كما جاء في الحديث الشريف هو إقامة الخلق والسلوك عليها .

من أولى من الله أن نؤمن به ؟ إنه الأول والآخر والظاهر والباطن !

من أولى من الله أن نرفع الصوت بتسبيحه وتكبيره ؟ إنه الله الذي سبح له ما في السموات والأرض .

من أولى من الله أن ننفق في سبيله ؟ إنه مانح المال في الحياة ، ووارثه مع فناء الكون كله .

من الذي يلجأ إليه الحائر ، ويستهدي به التائه ؟ إنه النور الهادي !





من الذي ينقي له القلب وتخلص له النية ؟ إنه العليم بذات الصدور.

والبشر يتفاوتون في هذه المعاني وآثارها ، ولذلك يقول الله للمؤمنين في هذه السورة.

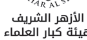
﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد : ١٠)

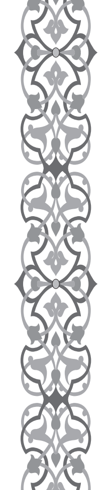
ولما كان المسلمون قد جاءوا بعد اتباع أديان لم تحسن معرفة الله ، ولم تع أسماءه الحسنى ، فقد نبهوا إلى اليقظة ، ونبذ الغيبوبة التي طوت الأولين ، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾
(الحديد : ١٦)

والخشوع لذكر الله في السياق الذي يملأ السورة كلها يقوم على أن الأسماء الحسنى لا يمكن عزلها عن الكون والحياة ، فالإيمان بالله لا يتم داخل صومعة معتمة ، لا ضوء بها ولا حراك ولا جهاد.

وربما لا يتحقق هنا الخشوع إلا في ميدان عراك مع الملحدين في أسماء الله ، الجاهلين بحقوق الخالق الكبير ، الذين يريدون أن تمضي الحياة بعيدة عن هداه ، محرومة من بركته وجداه.





٧٠- هل من شرح وجيز لأسماء الله الحسنى؟

«الله» : اسم الذات، المختص به جل شأنه، لا يتسمى به غيره، فهو عَلَمٌ على المعبود بحق، الذي تعنو له السموات والأرض وما بينها، ونحن نرفض إطلاق اسم (وجود) أو (دييه) على الذات الأقدس فلفظ «الله» وحده هو العلم الحقيقي.

(الرحمن) و(الرحيم) : من أسماء الله الحسنى، ومعنى الرحمة معروف، والاسم الأول مختص كذلك بالله سبحانه فلا يوصف به غيره،

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ ﴾

(الإسراء: ١١٠)

وهذه الصيغة في اللغة تعني بلوغ الصفة تمامها أما الرحيم فالصيغة تعني فيضان الوصف ليشمل الآخرين، فالذات العليا ممتلئة بالرحمة، وهذه الرحمة تعم الغير، وتشمل كل شيء.

(الملك) :

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾

(مريم: ٩٣)

﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾

(الرعد: ١٥)

«القدوس» : المطهر من كل عيب، المنزه عن كل نقص،



ومحور التسبيح يدور على هذا المعنى، سبحانه وتعالى.

«السلام»: الذي لا يجيء من قبله عدوان، بل يرتقب الخير والرضا.

«المؤمن»: الذي يذهب القلق والخوف ويمنح الطمأنينة والأمان

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾

(قريش: ٤)

«المهيمن»: الذي لا يغيب عن سلطته شيء، فهو يرقب ملكوته كله رقابة استيعاب وشهود.

«العزيز»: الغالِبُ فلا يُغْلَب، والذي يجير ولا يجار عليه،

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾

(فاطر: ١٠)

«الجبار»: العالي فوق الخلائق كلها، وفارض قضائه وقدره على كل شيء

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾

(الأعراف: ٥٤)

«المتكبر»: المتعالى على صفات الخلق لا يتنزل إليها، والتاء في هذه الصيغة للانفراد والتخصص، لا للتكلف، من الكبرياء بمعنى العظمة التي هي حق الله، ومن نازعه هذا الحق من جبابرة الأرض قصمه.

«البارئ»: الخالق ويغلب أن تستعمل الكلمة في إيجاد الأحياء، فيقال: بارئ النسم أي الأرواح.





«المصور» : منشئ الخلق على صور شتى .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾

(آل عمران : ٦)

وقلما تتفق ملامح الوجوه، مع كثرة الناس، ويكاد يستحيل اتفاق بصمات الأصابع، وهو سبحانه مصور خطوطها .

«الخالق» : موجد الكون من عدم، ولا يقدر أحد على الإيجاد من عدم .

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾

(النحل : ١٧)

(الغفار) : الذي يتجدد غفرانه لعباده مع تجدد عصيانهم له، وأصل الغفر الستر والتغطيمة ثم العفو !

(القهار) : الذي تنفذ إرادته دون اعتراض ! فيستحيل أن يردها بشر أو ملك، وهو معطى الكواكب أحجامها ومعطى الرسل أقدارها ومكانتها، وإذا منح أو منع لم يجرؤ على رد مشيئته أحد .

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾

(الأنعام : ١٧ ، ١٨)





(الوهاب) : صاحب العطايا الجزيلة، تفضلًا منه على من شاء.

﴿إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(آل عمران : ٧٣)

(الرزاق) : الذي يُطعِمُ ولا يُطْعَمُ، ويسوق لكل حي ما يفتقر إليه، ويفعل ذلك عن سعة واقتدار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾

(الذاريات : ٥٨)

(الفتاح) : الذي يفتح أبواب الخير المادي والأدبي من رزق أو علم.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ (فاطر : ٢)

(القابض الباسط) : هذه الصفات المتقابلة تشير إلى أفعال الله بين الناس حسب حكمته وإرادته.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (العنكبوت : ٦٢)

وليس هناك من يقترح أو يتدخل أو يعترض أو يعقب بل الله هو القابض الباسط وفق ما يعلم من خلقه ويشاء لهم.

ومثل ذلك «الخافض الرافع» و«المعز المذل» وآثار هذه الأسماء بين الناس تحتاج إلى إيضاح، إن المرء بفطرته يكره





الذل والخفض، ويحب العز والرفع، فإذا اشتهى ما يحب فعلى باب الله يجب أن يقف داعيًا، وإذا استعاذ مما يكره فعلى باب الله يجب أن يقف لا جئًا مستعيذًا !

وهو سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير، ما يستعير شيئًا من أحد !، وهل معه أحد ؟

لكن الكثيرين من الناس لا يعرفون ما العز ؟ وما الذل ؟ إن ملوك الآخرة عاشوا سوقة في الدنيا ما يأبه بهم أحد، وإن حطب جهنم ربما عاشوا في الدنيا فراعنة يستعرضون الجيوش، ويسيرون المواكب ! حتى تجيء الآخرة فتصحح الأوضاع المقلوبة

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ (الواقعة: ٣-١)

وفي الحديث «رب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة» ! (مسند ابن أبى شيبة: ٩٨٧) وفي الحديث كذلك «رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره». (شعب الإيمان: ١٠٤٨٢)

فإذا ذكرت هذه الأسماء الحسنى وما شابهها ففي ضوء هذه المعاني ينبغي أن تفهم.. وثم ضميمة أخرى، إن الله إذا أعز فلا ذل أبدًا، وإذا أذل فلا عز أبدًا

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

(آل عمران: ١٦٠)



وكل صوت تهمس به في أذن صاحبك فالله سامعه ! وكل حركة فوق الثرى فالله رائيها ! وعندما شعر موسى بالخوف لمَّا بعث هو وأخوه إلى فرعون، وقالا :

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾

(طه : ٤٥، ٤٦)

فالله هو السميع البصير ومن أسمائه الحسنى «الحكم».. «العدل» إنه المشرع الأعظم، فلا حاكم غيره ولا معقب لحكمه ولا يلتمس العدل عند غيره إلا أحمق

﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا ﴾ (الأنعام: ١١٤)

وهو يحكم بين عباده بما يشاء في الدنيا والآخرة، وقد يؤخر حكمه في أمور تقع بين الناس الآن، ليبت فيها يوم الفصل، والدنيا دار اختبار، وقد يكون من لوازم الاختبار أن يترك الناس على نظامهم إلى حين

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ (الأنعام: ٦٢)

ومن أسمائه الحسنى (اللطيف)، إنه يبلغ أمره بخطة رائعة وحكمة بالغة، وقد شعر بذلك يوسف في نهاية قصته فقال :

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

(يوسف: ١٠٠)



كمـا أنه في سـننه الكونيـة يقدر بلطافته على اسـتخراج الحبوب والرياحين من بين الماء والطين.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

(الحج: ٦٣)

(الخبير): العارف بالبواطن والأسرار.

(الحليم): بعيد الأناة في معاملة المخطئين، فلا يعاجلهم بالعقوبة،

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾

(النحل: ٦١)

(العظيـم): إن علماء الكون يشـعرون بضآلة أمام أبعاده وأغواره! فكيف يكون الشـعور أمام من أبرزه من عدم، وبنى فأوسع؟

(الغفور): للمسيء (الشـكور) للمحسن (العلي) فوق الخلائق كافة، سبحان ربنا الأعلى.

(الكبيـر): المتصـف بجلال الشـأن، وعظمـة الذات. والكلمة مأخوذة من الكبر، ومنها الهتاف المتكرر في الآذان بالغـدو والآصـال: الله أكبر، فمـا عدا الله موصـوف بالصغر وملوك الأرض وجبابرتها موصوفون أمامه بالصغار.

(الحفيظ): الذي لا تضيع عنده الودائع (المقيت) القيم على الأحياء يوفر لهم أقواتهم فيغذيهم صغارًا وكبارًا.



(الحسيب): الذي يكفى من أوي إليه وتوكل عليه

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾

(الزمر: ٣٦)

ومن ذلك التعبير المحفوظ: حسبنا الله.

(الجليل): من الجلال أو الجلالة وهو العلو المقرون بالمهابة. (الكريم) يده تسخو بالعطاء ليلًا ونهارًا من بدء الخلق وما دام الخلق، (الرقيب) من الرقابة وهي النظر إلى الأشياء بدقة وإحاطة.

(المجيب): قابل الدعاء والرجاء ممن قصده

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾

(الشورى: ٢٦)

(الواسع): الذي وسعت رحمته كل شيء ووسع غناه كل فقير. (الحكيم): الذي لا يقع في فعله عبث ولا في وحيه عوج، ولا في خلقه تفاوت. (الودود): الذي يتقرب إلى عباده بالنعمة والتجاوز مع غناه عنهم، وحاجتهم إليه. (المجيد): المجد تمام الشرف، والله أهل الثناء والمجد وأمجاد الألوهية تعنو لها الخلائق كافة.. (الباعث): محيي الموتى ليوم النشور.

(الشهيد): الذي لا يغيب عنه شيء

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾

(الأعراف: ٧)





﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾
(البروج : ٩)

(الحق) : الوجود الإلهي واقع لا يزول ولا يحول، وكل كائن يأخذ وجوده من الله عارية تسترد يومًا، «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»!!

(الوكيل) : الذي نفوض إليه أمورنا فيقوم بها عنا، وله القدرة على كفالة أرزاقنا، وإنجاح سعينا، ومن ثم يجب التوكل عليه.

(القوي) : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾
(فاطر : ٤٤)

(المتين) : الذي لا يلحق قدرته إعياء.

(الولي) : الذي يتولى أمور الكون، ويقوم بها كما يقوم ولي اليتيم القاصر بشئونه كلها، ولله المثل الأعلى.

(الحميد) : كل أفعاله جديرة بالحمد، والحمد معنى يمتزج فيه المدح والشكر والتمجيد.

(المحصي) : في سجلاته إحصاء لكل شيء
﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾
(القمر : ٥٣)

«المبدئ» : خالق الأشياء لأول مرة، و«المعيد» : الذي يرد إليها وجودها بعد إفنائها



﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٤)

(المحيي المميت): الذي خلق الموت والحياة، وأخضع لهما الكائنات، أما هو فإنه (الحي) بذاته، وهو (القيوم) لا تقوم الأشياء إلا به، ولو سلبها وجودها لتلاشت، فتيار الوجود يجيئها مددًا بعد مدد من الحي القيوم، فمنه الإيجاد والإمداد جميعًا.

(الواجد): من الجدة وهي الثروة، وأملاك الله لا تعد، لأن كل شيء ملكه.

(الماجد): كالمجيد (الواحد): المنقطع القرين لا شريك له ولا ند ولاضد. (الأحد): مثله، وأساسه الانفراد والوحدة عن الأصحاب. (الصمد): هو السيد المقصود عن كل سؤال، (القادر) و(المقتدر): المعنى واضح والتكرار زيادة في نفي العجز، فإن جهلة البشر تتعاظم عندهم أمور هي عند الله بين الكاف والنون.

(المقدم) و(المؤخر): الله- تبارك اسمه- يرتب الأشخاص والأشياء وفق مشيئته وحكمته، وهو يتفضل دون مساءلة! ولكنه منزه عن الظلم وفي الحديث: (أنت المؤخر، لا إله إلا أنت) (مسند أحمد ٣٣٦٨)

(الأول): السابق فليس قبله شيء. (الآخر): الباقي فليس بعده شيء (الظاهر): المستعلي فليس فوقه شيء (الباطن): المحتجب عن الأبصار، فليس دونه شيء!



(الولي) : المتصرف في ملكوته لا ينازعه أحد (المتعالي) المنزه عن أوصاف الخلق وعما لا يليق بكماله.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾

(الجن: ٣)

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

(الإسراء: ٤٣)

(البـر) : مصدر البر والحنان وكل ما يتعاطف له الناس.. (التواب) ملهم عبـاده ترك الإثم، والندم عليه والاعتذار إلى ربهـم عنه (المنتقـم) المقصود أنـه بالمرصـاد للمجرمين يقمـع غرورهم، ويؤدبهـم على طغواهـم! (العفو) : يصفح عمن أساء، والعفو أحب إليه من القصاص.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الشورى: ٢٥)

(الرءوف) : الرأفة رقة تجعل المرء يخفف في التكليف، ويؤثر التجاوز عند الخطأ، ولله المثل الأعلى، وهو يكلف في حدود الطاقة ويقدم الصفح على المؤاخذة.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾

(النساء: ٢٨)

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحج: ٦٥)

(ذو الجلال والإكرام) : صفات الجلال تورث الخشية والرهبة، وصفات الجمال- وأساسها الإكرام- تورث الحب والرغبة، وجاء في الحديث: (انطقوا بياذا الجلال والإكرام) (مسند أحمد ١٧٥٩٦ بلفظ: ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام) أي ألحوا على الله بهذا الاسم.

(مالك الملك) : مالك كل شيء من خلقه وعبده، لا شريك له! (المقسط) : العادل، (الجامع) : الذي يحشر الخلائق للحساب

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ ﴾

(آل عمران: ٩)

(المانع) : يحمي أولياءه ويدفع عنهم وينصرهم (الغني) المعنى واضح. (المغني واهب الغنى النفسي والمادي).

(الضار النافع) : ما تراه من سرور وحزن، ونعمة ونقمة، ونصر وهزيمة فمن الله وحده.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴾

(النجم: ٤٣، ٤٤)

يختبر الله عباده بالأضداد.

(النور) : الذي يبصر بنوره ذوو العماية، ويرشد بهداه ذوو الغواية، وهو فالق الإصباح ومضيء الآفاق!

(الهادي) : المنقذ من الحيرة، ومثبت المؤمنين على الحق. (البديع) الإبداع اختراع ما ليس له مثال، والكون صنع الله الذي لم يصنع من قبل مثله.





(الباقي) :

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾

(القصص : ٨٨)

(الوارث) : الذي يئول الوجود إليه.

(الرشيد) : مرشد الناس إلى مصالحهم في معاشهم ومعادهم.

(الصبور) : الذي يرى من عباده القبيح فلا يسارع بالفضيحة، ويسمع منهم السوء فلا يعاجل بالعقوبة، فهذا الاسم كاسمه.

(الحليم) : غير أنه قد يطول لطفه، ويرجى صفحه. أما الصبور فينبغي القلق من إمهاله ! !

ويمكن أن يطالع القارئ في شرح الأسماء الحسنى بتوسع وبصيرة كتاب أبي حامد الغزالي (المقصد الأسنى) ففيه إن شاء الله ما ينفع.






٧١ - يجتمع بعضهم على ذكر الله لكنهم يتمايلون ويترقصون ويغالون في ذلك مغالاة كبيرة .. فما حكم صنيع هؤلاء؟

الواقع أن هذا المسلك انحراف ديني مرفوض، ونحن هنا نتساءل: ما الذي حمل عليه، ودفع جماعة من العابدين إليه؟ لا بد من تحديد السبب لإمكان الدواء.

إن الفقير قد يلزم طعامًا واحدًا؛ لأنه لا يجد غيره، ولو كان موسعًا لنوَّع وكثَّر! وخطيب الأرياف الذي لا يحفظ إلا خطبة واحدة لا يجد بدا من تكرارها! ماذا يصنع؟ ذلك مبلغه من العلم! وهكذا.

والأمة الإسلامية حبست نفسها، أو حبستها ظروف سيئة في جملة من العبادات لا تتجاوزها، فإذا اتسع وقتها، وشاقتها الطاعة كررت ما تعرف، فضمت إلى صلاة الفريضة مثلًا صلاة نافلة، فإذا اتسع الوقت أكثر تنفلت أكثر!

وربما عنَّ للبعض أن يخترع من عند نفسه عبادات لا أصل لها، ليزداد بها قربى إلى الله.

ونسأل مرة أخرى: لماذا انفتح باب الاختراع في الدين، وهو شر؟ ولم ينفتح باب الاختراع في الدنيا وهو الخير؟

ولماذا كرر الأتقياء الصلوات، والصيام، والذكر والاستغفار، وزادوا أرصدتهم من النوافل هنا، والاحتراف والتطواف بالبر والبحر، ومسابقة الأمم في تنمية النشاط العمراني وتطويعه لدعم الحق ومساندة الخير؟



الحق المر أن الفساد السياسي من وراء هذه البلبلة الفكرية.

الفرار من هذا البلاء أولى ولو إلى مجالس ذكر تبتدع! أو خلوات قصية تقصد، ويعتزل بها المجتمع!

لقد كان المهندس(«سنمار») ماهرًا في فن البناء، فلما أبدع قصرًا لأحد شيوخ القبائل كي يتطاول فيه، رأى الشيخ الكبير أن سنمار قد يبني مثله لغيره! فيشاركه العظمة، فماذا يصنع؟ ألقى بسنمار من سطح القصر؛ ليبقى القصر وحيدًا للرجل الوحيد!

إن جنون العظمة لا يقف عند حد، وهو قمين إذا استبد أن يهلك الدين والدنيا معًا.

واعتقادي أن الفساد من وراء انهيار الأمة الإسلامية، وضياعها دنيا ودينًا، لقد بقيت صور العبادات الشخصية، بل زاد حجم هذه العبادات بالبدع التي اخترعها أهل البطالة، وأقبل عليها الرعاع، يتمايلون ويتراقصون.. أما العبادات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وسائر الأنشطة الحضارية، فقد اعتلت، ثم توقفت، فلما جاء العصر الأخير كنا في ذيل العالم نترنح.

وهمس في أذني رجل صالح، قال: دعني من سخريتك هذه! وسأقرأ عليك صفحة فيها خير كثير.. قلت: اقرأ فأنا إلى خير الله فقير!

قال: كتب محمد المواق وفقه الله: الحمد لله والصلاة







والسلام علي رسول الله، قال الله -سبحانه وتعالى- لسيد خلقه:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾

(الحجر: ٩٧)

وأنا - أيها الإنسان - قد ضاق صدري بما يقول الناس، لكن قال تاج الدين: متى توجه الناس بالذم إليك فارجع إلى علم الله فيك، ولاتحد عنه فإن كان لا يقنعك علمه، فعدم قناعتك بعلم الله أعظم من وجود الأذى منهم.

وأنا - أيها الإنسان - بالنسبة إلى ما بيني وبين ربي غير راض - والله- عن نفسي! والله ما أرضى حياتي لمماتي! ولا نفسي لربي! فلا صواب لي أن أعتب على الناس!!

وأما بالنسبة إلى ما ينقم الناس مني، فما ندمت على ما كتبت، ولا استغفرت الله منه!! ولا أقدم اعتذارًا للناس على قول أرضيت به ربي!

اللهم أغنني برحمتك عن بركاتهم اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك علي، أنت ثقتي ورجائي!

فكم من نعمة أنعمت بها علي قلَّ لك بها شكري!

وكم من بلية ابتليتني بها قلَّ لك عندها صبري!







فيا من قلَّ عند نعمته شكري فلم يحرمني، ويا من قلَّ عند ابتلائه صبري فلم يخذلني، ويا من رآني على المعاصي فلم يفضحني! أسألك اللهم أن تصلي على محمد وآله، وأن تعينني على ديني بدنياي وعلى آخرتي بالتقوى..

واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكلني إلى نفسي فيما حضرته..

يا من لا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، هب لي ما لا ينقصك، واغفر لي ما لا يضرك!

يا إلهي، أسألك فرجًا قريبًا وصبرًا جميلًا، وأسألك العاقبة من كل بلية، وأسألك الشكر على العافية، وأسألك دوام العافية، وأسألك الغنى عن الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إن هذا الدعاء نقلني من حال إلى حال، وشعرت بأن الرجل ينطق بلساني ويترجم عن جناني، وغالبت أنينًا دار في فؤادي، وفاضت به عيناي!

إن الذكر ليس صياح فم، وإنما هو خشوع قلب، واستكانة عبد إلى سيده، وعمله له دون منٍّ أو خيلاء!

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

(الحجرات: ١٧)

عندما أقرأ بعض الكتب يتملكني الشعور بأن مسافرًا ترك عمله، ومصدر رزقه، وتوجه إلى بلد ناءٍ يستجم فيه، ويتخلص






من قيود الواجبات وعناء التكاليف ! هل هذه النشوة العاطفية هي الصورة الكاملة أو الصحيحة للحياة كلها ؟

بل السؤال الأول ، هل هذا الانقسام موجود في مفهوم الدين عندما تقرأ القرآن الكريم أو عندما تطالع السيرة ، وكتب السنة ؟ لا ، لا انقسام ولا تفاوت ، فالنية شرط لكل عمل مقبول ، وذكر الله إطار لا بد منه حتى يستحق العمل الاحترام والثواب !

ويخالط هذا الذكر كل شئون الحياة بدءًا من عمل الفلاح في حقله ، إلى عمل الحاكم في ديوانه ، وتسأل : ما هذا الذكر ؟ وأجيب : ما صنعه عمر بن الخطاب عندما خطب الناس يومًا فذكر لهم تفاهة حرفته صدر حياته ، وكيف كان أجيرًا لا يؤبه له ! فلما نزل من المنبر ، قال له عبد الرحمن بن عوف : ما زدت على أن هجوت نفسك ! فقال عمر : ذاك ما قصدت ! إن نفسي تطاولت فأحببت أن أقمعها .

هذا حاكم يفهم بعمق معنى قوله سبحانه :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص : ٨٣)

إنه سياسي كبير يحمل فؤاد عابد كسير ، إنه لن يتفرعن يومًا وهو يحمل بين حناياه هذا القلب !


الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

٧٢- لماذا أوصى الإسلام بصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة؟

الصلاة جزء من النشاط الإسلامي فوق كل أرض يعمرها الإسلام، والمسجد هو السمة الأولى للحضارة الإسلامية في كل قرية أو مدينة.

وعندما ينجح المؤمنون في إقامة مجتمعهم بعيدًا عن إذلال الفتانين وعماية الكافرين، فإن أول عمل يفكرون فيه ويبادرون إليه هو إقام الصلاة، استجابة للآية الكريمة:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾

(الحج: ٤١)

وقد حاول البعض أن يدخل في الإسلام متخففًا من الصلاة، فأبى الرسول إباء جازمًا وهو يقول: «لا خير في دين بلا صلاة..» [رواه ابن اسحاق].

ونبه القرآن الكريم إلى أن المدنيات التي تفسخت وبادت هي تلك المدنيات التي جفّت فيها ينابيع الروحانية، وهيمنت عليها الشهوات المادية، وانقطعت بالله صلتها، فقطع عنها بركته!

قال -تعالى- في وصف هذه الأجيال المنحلة:

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (مريم: ٥٩)

إن ارتباط العفة والاعتدال بالصلاة مفهوم، واشتداد السعار الحيواني مع البعد عن الله واقع، ولن تكسب الحضارات







المغرقـة فـي المـادة إلا الصراع علـى الوهم، والهـلاك وراء سراب يلمع ولا غوث فيه !

وقد أوصى الإسلام بالانطلاق إلى المسجد خمس مرات كل يوم، وحافظ المسلمون على ذلك حتى قال ابن مسعود : «لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه أو مريض، وقـال : إن رسـول الله علمنا سـنن الهدى وإن من سـنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه». (صحيح مسلم ٦٥٤)

ويظهـر أن أعداء الإسـلام علـى عهد الوحـي غاظهم هذا المنظر المهيب المتكرر بالغدو والآصال، منظر المسـلمين وهم يجيئون من أطراف المدينة ليصلوا وراء نبيهم، ما تنفض لهم جماعة حتى تقوم أخرى.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾
(النساء: ١٠٣)

فمـاذا يصنعـون؟ أخذوا ينفسـون عن ضغائنهـم بالغمز واللمـز، وربمـا تضاحكوا، وعقـدوا المجالس عند سـماع الأذان، وقيام الجماعات ليرسلوا التعليقات الساخرة ! وهذا مسلك شرير يمكن تركه !

ونزل الوحي يطالب المؤمنين بأن يقاطعوا هؤلاء العابثين، وأن يتجهموا لهم، وهذا أقل ما يمكن عمله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم



مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة: ٥٧، ٥٨)

ما الذي جمع اليهود، وعبدة الأصنام، والمنافقين على التندر بالدين الجديد والنيل من شعائره؟ إنه الإيغال في الكفر والتحدي!

وكَره النبي ﷺ أن يقابل الإسلام بهذا المجون، وأن تنال شعائره بهذا العبث، وأن يجد المنافقون ظهيرًا لهم من بين الكفار يساعدهم على النيل من المسلمين بهذا الأسلوب الدنيء، فأرسل هذا التحذير الذي بلغ صداه القوم فأقض مضاجعهم، قال: «لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلًا يصلي بالناس، ثم أنطلق معي رجال معهم حزب من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم» [صحيح مسلم].

وكانت أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر! ولا ريب أنهم المعنيون بالتهديد السابق! فإن اليهود والنصارى لا يكلفون بصلاة!

وليس معنى الحديث أن تجميع الناس للصلاة يتم بالتهديد، فذاك مستحيل؛ لأن جمهرة المؤمنين كانوا ابتغاء وجه الله يهرعون إلى المسجد كلما سمعوا النداء، وكان أملهم ادخار الأجر العظيم عند الله. قال ابن مسعود: «إن كان المريض ليمشي بين الرجلين -يحملانه لمرضه- حتى يأتي الصلاة، وكان أبعد الناس ممشى يحتسب خطاه عند الله، ويحرص على الانتظام في الصفوف».





لكن من حق المؤمنين عند إقام الصلاة في الجماعات العامة ألا تنتظم جماعات أخرى للعبث، وألا تنعقد مجالس لجد أو هزل، وألا تقام أسواق للشغب.

وقد لاحظ الناس عند عقد اجتماعات الهدنة بين المصريين واليهود أن اليهود كانوا يتحرون أيام الجمعة للمفاوضات وكأنهم يريدون عمدًا انتهاك وقت الجمعة، وإضاعة شعائرها ! !

وتهديد الساخرين والماجنين بالتحريق عليهم ترك أثره، ولم يؤثر قط عن النبي الكريم أو أيام الخلافة الراشدة، أن وقع شيء من ذلك، وقد شرحنا ملابسات هذا التهديد كما جاءت في الكتاب العزيز، فلا مجال للاستخفاف، والقول بأن الإسلام يأمر بإحراق المتخلفين عن الصلاة ! !

عن أم الدرداء قالت: دخل عليَّ أبو الدرداء وهو مغضب ! فقلت: ما أغضبك ؟ قال: والله ما أعرف مِنْ أمر أمة محمد ﷺ شيئًا إلا أنهم يصلون جميعًا.

وعن أنس، قال رسول الله ﷺ: «إني لأدخل في الصلاة، وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي -أخففها- لما أعلم من وجد أمه من بكائه» ![السنن الكبرى للبيهقي]

وعن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم من صلاته يمكث في مكانه يسيرًا، فنرى والله أعلم أن مكثه لكي ينصرف النساء قبل أن يدركهن الرجال.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها



أولها»[صحيح مسلم]. وظاهر أن الوصف بالشر لمن يحاول من الجنسين أن يقترب من الآخر! أما من لا يجول بخاطره شيء يريب فلا يلحقه إثم، والمراد توفير جو الطهر والتقوى في المسجد.

وهذه الآثار المتتابعة قليل من كثير من السنن الدالة على أن المسجد كان يستقبل الأمة كلها، وأن إقصاء النساء عنه لم يعرف في سلف الأمة، بل كانت روحانية المسجد وثقافته تسريان على امتداد الشوارع وداخل البيوت.

وإذا كانت الجماعة للصلوات الخمس سنة مؤكدة، فإن حضور الجمعة فرض عين على كل مسلم قادر.. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (الجمعة: ٩)

وعن عبد الله بن عمرو، قال رسول الله ﷺ: «يحضر الجمعة ثلاثة نفر: فرجل حضرها يلغو، وهو حظه منها!! ورجل حضرها يدعو، فهو رجل دعا الله إن شاء أعطاه وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحدًا، فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام. إن الله تعالى يقول:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾

(الأنعام: ١٦٠)[سنن أبي داوود]

وقال علي بن أبي طالب وهو يخطب على منبر الكوفة -إذا







كان يوم الجمعة : غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق ، فيرمون الناس بالربائث- الربيثة ما يعوق المرء عن عمله ويصرفه عن واجبه- ويثبطونهم عن الجمعة ! وتغدو الملائكة فيجلسون على أبواب المسجد يكتبون الرجل من ساعة ، والرجل من ساعتين ! حتى يخرج الإمام . . فإذا جلس الرجل مجلسًا يستمكن فيه من الاستماع والنظر ، فأنصت ولم يلغ كان له كفلان من الأجر ! فإن نأى وجلس حيث لا يسمع فأنصت ولم يلغ كان له كفل من أجره ! وإن جلس مجلسًا يستمكن فيه من الاستماع والنظر فلغا ولم ينصت كان عليه كفلان من وزر . فإن جلس مجلسًا لا يستمكن فيه من الاستماع والنظر ، فلغا ولم ينصت ، كان عليه كفل من وزر ، ومن قال لصاحبه يوم الجمعة : صه ! فقد لغا ، ومن لغا فليس له في جمعته تلك شيء !

ثم قال في آخره : سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك .

والجمعة شعيرة تَرْجُح أعظم أجهزة الدعاية التي وصل إليها العالم ، وإذا كان المسلمون الآن ألف مليون نسمة ، فمفروض أن تلقى بينهم خطب بين المليون والمليونين كل أسبوع ! يقوم رجل موجه فيتحدث باسم الله إلى عباده ، يقول ما لديه ، والمصلون صامتون يصغون لما يقال ، لا يتشاغل عنه أحد ، ولا ينصرف من مكانه حتى يسمع الخطبة كلها ويؤدي الصلاة ! !

إن أمة هذه نظمها ينبغي أن تتوحد صيغتها ووجهتها ، وأن يرقى مستواها الفكري والعاطفي ، وأن تغالب أسباب التفكك والفرقة .



وأكره أن تكون الخطبة تحرشًا شخصيًا، أو تهجمًا سياسيًا، أو تعليقًا مقصورًا على الأحداث العابرة، فإن المساجد لم تبن لشيء من هذا، وتشريع الخطبة كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة: ٩)

والذكر المقصود ربط الناس بربهم من خلال النظر في آفاق الكون وشئون الناس على نحو ما وضح القرآن الكريم:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣)

وتطويل الخطبة غير سائغ ولا مشروع، فعن أبي وائل قال: خطبنا عمار بن ياسر فأوجز وأبلغ، فلما نزل قلنا: يا أبا اليقظان لقد أبلغت وأوجزت، فلو كنت تنفست -أطلت! فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه! -علامة- فأقصروا الخطبة وأطيلوا الصلاة» (صحيح مسلم ٨٦٩).

وكانت أكثر خطب رسول الله من القرآن الكريم؛ ولذلك لم تحفظ عنه خطب من كلامه عليه الصلاة والسلام، إلا على ندرة.. وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: «ما أخذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ -حفظتها- إلا من لسان رسول الله ﷺ يوم الجمعة يقرأ بها على المنبر في كل جمعة» كانت قد شهدتها.. والمفروض أن خطبة الجمعة نحو خمسمائة مرة بعد هجرته عليه الصلاة والسلام.



٧٣- ماذا تقترحون لرفع مستوى الخطبة ودعم رسالة المسجد؟

المسجد قلب المجتمع الإسلامي، وملتقى المؤمنين بالغدو والآصال لأداء حقوق الله، واستلهام الرشد، واستمداد العون منه جل شأنه.

وهو مصدر طاقة عاطفية وفكرية بعيدة المدى خصوصًا أيام الجمع عندما تنصت جماهير المصلين في سكينة وخشوع (للإمام) وهو يشرح لهم تعاليهم الإسلام ويبين لهم حدود الله، ويقفهم على ما في الكتاب والسنة من عظات وآداب.

إن خطبة الجمعة من شعائر الإسلام الكبرى، ومعانيها تنساب إلى النفوس في لحظات انعطاف إلى الله وتقبل لوصاياه.

ومن ثم كان موضوعها جليل الأثر كبير الخطر.

والإمام الذي يدرس موضوعه ويجيد عرضه، يقوم بنصيب ضخم في تثقيف الأمة، وترشيد نهضتها، ودعم كيانها المادي والأدبي، ووصل غدها المأمول بماضيها المجيد.

لما كنا نريد الوصول بمستوى الخطابة في المسجد إلى مكانته اللائقة به، ونريد جعل المنبر مرآة لما حوى الإسلام من معرفة صالحة وتربية واعية، فقد أثبتُّ هذه التوجيهات الموجزة لما ينبغي أن يتوافر في خطبة الجمعة من زاد روحي وثقافي منظم:





١ - يحســن أن يكون لخطبة الجمعة موضوع واحد واضح غير متشعب الأطراف ولا متعدد القضايا، فإن الخطيب الذي يخوض في أحاديث كثيرة يشتت الأذهان وينتقل بالسامعين في أودية تتخللها فجوات نفسية وفكرية بعيدة، ومهما كانت عبارته بليغة، ومهما كان مسترســلا متدفقا فإنه لن ينجح في تكوين صورة عقلية واضحة الملامح لتعاليم الإسلام.

والوضوح أساس لا بد منه في التربية، والتعميم والغموض لا ينتهيان بشــيء طائل، وخطبة الجمعة ليســت درسًا نظريًا بقدر ما هي حقيقة تُشرْح وتُغرْس.

٢- عناصــر الخطبة يجب أن يســلم أحدهــا إلى الآخر في تسلســل منطقي مقبول كما تســلم درجة السلم إلى ما بعدها دون عنــاء بحيــث إذا انتهــى الخطيب من إلقــاء كلمته كان الســامعون قــد وصلوا معــه إلى النتيجــة التي يريــد بلوغها، وعليه أن ينتقي من النصوص والآثار ما يمهد إلى هذه الغاية.

٣- ولمــا كانــت الخطبــة الدينيــة تنســج مــن المعانــي الإســلامية المســتمدة من (الكتاب والســنة) وآثار الســلف الصالــح فإن لحمتها وســداها يجــب أن يكونا مــن الحقائق المقبولة، وفي آيات القرآن الكريم، ومعالم الســنة المطهرة متســع يغنــي في الوعــظ والإرشــاد، ولذلك لا يليــق البتة أن تتضمن الخطبة الأخبار الواهية بله الموضوعة.

وإذا كان العلمــاء قــد تجوزوا في الاستشــهاد بالأحاديث الضعيفــة فــي فضائــل الأعمــال، فقد اشــترطوا لذلــك: ألا




تخالف قواعد الإسلام الكلية ولا أصوله العامة وفي الأحاديث الصحيحة والحسنة مجال رحب للخطيب الفاقه وفي سيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والأئمة المتبوعين ما يغني عن الأساطير والأوهام.

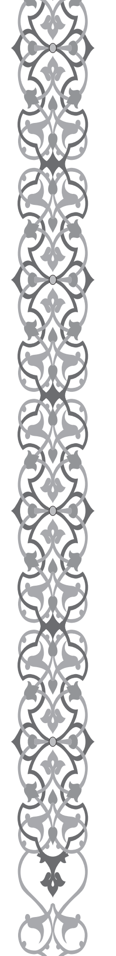
٤- لا يجوز أن تتعرض الخطبة للأمور الخلافية، ولا أن تكون تعصبًا لوجهة نظر إسلامية محدودة فإن المسجد يجمع ولا يفرق، ويلم شمل الأمة بشعب الإيمان التي يلتقي عندها الكل دون خوض في المسائل التي يتفاوت تقديرها وما أكثر العزائم والفضائل التي تصلح موضوعا لنصائح جديدة وخطب موفقة وقد شقي المسلمون بالفرقة أياما طويلة، وجدير بهم أن يجدوا في المساجد ما يوحد الصفوف، ويطفئ الخصومات.

٥- بين الخطبة والأحداث العابرة، والملابسات المحيطة، والجماهير السامعة، علاقة لا يمكن تجاهلها ومما يزري بالخطيب ويضيع موعظته أن يكون في واد، والناس والزمان والمكان في واد آخر.

ولأمر ما نزل القرآن منجما على ثلاث وعشرين سنة، فقد تجاوب مع الأحداث وأصاب مواقع التوجيه إصابة رائعة.

ولما كان القرآن شفاء للعلل الاجتماعية الشائعة، فإن الخطيب يجب عليه أن يشخص الداء الذي يواجهه، وأن يتعرف على حقيقته بدقة فإذا عرفه واستبان أعراضه وأخطاره رجع إلى الكتاب والسنة فنقل الدواء إلى موضع





المرض وذلك يحتاج إلى بصيرة وحذق، فإن الواعظ القاصر قد يجيء بدواء غير مناسب فلا يوفق في علاج، وربما أخطأ ابتداء في تحديد العلة فجاءت خطبته لغوًا وإن كانت تتضمن مختلف النصوص الصحيحة.

٦- هناك طائفة من الأحاديث تسوق الأجزية الكبيرة على الأعمال الصغيرة.. وقد قرر العلماء المحققون أن هذه الأحاديث ليست على ما يفهم منها لأول وهلة.. وأن ما فيها من أجزية ضخمة إنما هو لأهل الشرف في العبادة وأهل الصدق في الإقبال على الله.. وليس ذلك على عمومه.

ومن هنا لا يجوز للخطيب أن يضمن خطبته هذه الأحاديث سردًا مجردًا، فيحدث فوضي في ميدان التكاليف الشرعية، ولكن إذا قضى ظرف بذكر هذه الأحاديث ذكرها مع شروحها الصحيحة.

٧- تقوم التربية الدينية علي بيان الجوانب الخلقية والاجتماعية في الإسلام وشرح ما يقترن بالخير والشر من معان حسنة أو سيئة، ومن عواقب حميدة أو ذميمة.. ولا بأس من التعريج على الأجزية الأخروية وعرض ما أعده الله في الآخرة للأبرار والفجار، بيد أن الإسهاب والتفصيل في ذكر الأجزية المغيبة لا لزوم له والذي ينبغي هو أن يكتفى بالإلماح إلى ما جاء في القرآن والسنة عن ذلك دون تطويل وتعمق.

٨- من الخير أن تتضمن خطبة الجمعة أحيانًا شيئًا





من أمجاد المسلمين الأولين الثقافية والسياسية وتنويهًا بالحضارة اليانعة التي أقامها الإسلام في العالم، مع الإشارة إلى أن ينابيع هذه الحضارة تفجرت من الحركة العقلية التي أحدثها القرآن الكريم، واليقظة الإنسانية التي صنعها الرسول ﷺ، ويكون الغرض من هذه الخطب -على اختلاف موضوعاتها- أن ترجع إلى المسلمين ثقتهم بأنفسهم ورسالتهم العالمية.

٩- معروف أن هناك فلسفات أجنبية ونزعات أجنبية ونزعات إلحادية تسربت إلى الأمة الإسلامية في كبوتها التاريخية الماضية وطبيعي أن تتعرض الخطبة لذود هذه المفاسد النفسية عن أبناء الأمة، ووظيفة الخطبة في الإسلام عندئذ أن تتجنب الأخذ والرد والجدال السيئ ولكن تعرض الحقائق الإيجابية في الإسلام بقوة، وترد على الشبهات دون عناية بذكر مصدرها، لأن المهم هو حماية التراث الروحي والعلمي.. وليس المهم تجريح الآخرين وإلحاق الهزائم بهم.

١٠- قبل أن يواجه الخطيب الجمهور ينبغي أن تكون في ذهنه صورة بينة لما يريد أن يقوله، بل يجب أن يراجع نفسه قبل الكلام، ليطمئن اطمئنانا كاملا إلى صحة القضايا التي سوف يعرضها، وإلى سلامة آثارها النفسية والاجتماعية.

وعليه أن يتثبت من الأدلة والشواهد التي يسوقها في معرض الحديث، فإن كان قرآنا حفظه جيدًا وإن كان سنة





رواها بدقة، وإن كان أثرًا أدبيًا أو خبرًا تاريخيا فإن توفيقه يكون بحسب مطابقته أو اقترابه من الأصل المنقول عنه.

إن التحضير المتقن دلالةُ احترام المرء لنفسه ولسامعيه، وقد تفجأ الإنسان مواقف يرتجل فيها ما يلتقي به الناس ويصور ما بنفسه.

والواقع أن القدرة على الارتجال تجيء بعد أوقات طويلة من الدربة على التحضير الجيد، وعلى تكوين حصيلة علمية مواتية لكل موقف.

ومع ذلك فإن المهارة في الارتجال لا تغني عن حسن التحضير للعالم الذي يريد أداء واجبه بأمانة وصدق، والذي يقدر إنصات الناس له واحتفاءهم بما يقول.

١١- الإيجاز أعون على تثبيت الحقائق، وجمع المشاعر والأفكار حول ما يراد بثه من تعاليم، فإن الكلام الكثير ينسي بعضه بعضًا، وقد تضيع أهم أهدافه في زحام الإطناب والإفاضة.

ألا ترى الأرض تحتاج إلى قدر محدد من البذور كيما تنبت، فإذا كثر النبات بها تخللها الفلاح باجتثاث الزائد حتى يعطي البقية فرصة النماء والإثمار.

كذلك النفس البشرية لا تزكو فيها المعاني إلا إذا أمكن تحديدها وتقويمها، أما مع كثرة الكلام وبعثرة الحقائق، فإن السامع يتحول إلى إناء مغلق تسيل من حوله الكلمات مهما بلغت نفاستها.





وللإطناب الممل أسباب معروفة منها : سوء التحضير ، فإن الخطيب الذي يلقى الناس بالجزاف من الأحكام والتوجيهات لا يدري بالضبط أين بلغ قوله ، وهل وصل إلى حد الإقناع أم لا ، فيحمله ذلك على التكرار والإطالة ، وما يزداد من الجمهور إلا بعدا . .

وقد تنشأ الإطالة عن سوء التقدير للوقت والمواقف ، فيظن الخطيب أن بحسبه أن يقول ما عنده وعلى الناس أن ينصتوا طوعًا أو كرها –وهذا خطأ .

ومما يحكى في قيمة الإيجاز أن أحد الرؤساء طُلبَ منه إلقاء خطبة في بعض دقائق فقال : «أمهلوني أسبوعًا» فقيل له نريدها في ربع ساعة قال : «أستطيع بعد يومين» قيل له : فإذا طلبناها في ساعة ؟ قال : «فأنا مستعد الآن»

إن الإيجاز يتطلب الموازنة والاختيار والمحو والإثبات أما الكلام المرسل فالجهد العقلي فيه أقل ، والحقيقة أن خمس دقائق تستوعب علمًا كثيرًا ، وعشر دقائق وخمس عشرة دقيقة تستوعب خطبة أو محاضرة جيدة .





٧٤- ما الحكمة في قيام الليل؟ وكيف يكون؟

لا بد من تمهيد لهذا الموضوع، وللموضوع الذي يجيء بعده، نتحدث فيه عن الأوج الذي رفع محمد صحبه إليه، وثبتهم -صلوات الله وسلامه عليه- في رباه! لقد اتفق الدارسون لشخصية محمد على أن قدراته الروحية خارقة للعادة، وأنه يخطف البصائر بطيب نفسه وعظمة خلقه ووهج مشاعره، وأنه استطاع بالقرآن الكريم أن يشرح صدورًا ويوسع آفاقًا، وينقل جيلا من البشرية الضيقة إلى الربانية الرحبة المشرقة!

إن الجيل الذي رباه محمد كان جيلًا محسنًا يعبد الله كأنه يراه، شجاعًا يركل الدنيا يقدمه ويمضي ثابت الخطا إلى ربه، كريمًا لا يحرص على مال، بل ما يعطيه لله أحب لديه مما يستبقيه لنفسه، مقيمًا للصلاة ينتظم في صفوفها برغبة وخشوع، ويحافظ على أوقاتها في الصحة والمرض والسلم والحرب.

هذا الجيل تلقى الحق وصانه وسلمه إلى من بعده في وفاء وفداء لم تعرف الدنيا لهما نظيرًا في تاريخها الطويل!

إن الملائكة لتنظر بإعجاب إلى هؤلاء الأصحاب! بل إنها لتحفهم وهم يجاهدون، تتنزل عليهم وهم يتهجدون! ما أحسبها - وهي ترقب الأرض من قديم - رأت خيرًا منهم، حاشا أنبياء الله السابقين!





من أجل ذلك، لم أحس باستغراب عندما قرأت في الصحاح هذين الخبرين.. عن أسيد بن حضير -رضي الله عنه- قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة -وفرسه مربوطة عنده- إذ جالت الفرس، فسكت، فسكنت! فاستأنف القراءة فجالت، فسكت فسكنت الفرس! ثم قرأ فجالت، وكان ابنه يحيى قريبًا منها فانصرف فأخره -أبعده عن قوائمها- ثم رفع رأسه إلى السماء، فإذا مثل الظلة، فيها أمثال المصابيح فلما أصبح حدث النبي ﷺ -بما رأى- فقال له: «أوتدري ما ذاك؟» قال لا.. قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت -تابعت التلاوة- لأصبَحَتْ ينظر إليها الناس ما تتواري منهم»!

قلت: ما الغرابة؟ ملائكة السماء اقتربت من ملائكة الأرض الذين يقومون الليل بالقرآن.

وقد تكررت هذه القصة لغير أسيد، وسواء استبعدها الماديون أو قبلوها، فإن من يناجي الله بكتابه والناس نيام له مكانة خاصة، وقد جاء في الحديث «ما أذن الله بشيء -أي ما أنصت- إذنه -أي إنصاته- لعبد يقرأ القرآن في جوف الليل، وإن البر ليدر على رأس العبد ما دام في مصلاه.. وما تقرب العباد إلى الله تعالى بمثل ما خرج منه» (البخاري ومسلم).

قال أبو النضر: يعني القرآن، منه بدأ الأمر به، وإليه يرجع الحكم فيه..

والناس عادة ينطرحون في فرشهم يحسبون النوم غيبوبة تتخللها أضغاث الأحلام، وغرائز الأجهزة الدنيا أو





وساوسها ! لكن هناك ناسًا آخرين رسب في أعماقهم إجلال الله، والتوجه إليه، يشبه نومهم نوم المشوق إلى غائب أو الباحث عن حقيقة ! !

فإذا نابتهم يقظة خلال الرقاد، اتجهوا إلى الغائب المشوق، أو الصواب المنشود !

صور الحديث الشريف حال هؤلاء في قوله ﷺ : «من تعار من الليل -أي استيقظ فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته» ! !

شتان بين نائم مغمى عليه، ما يحركه إلى ربه شيء، وبين آخر يستجم بنومه، ويسبح بحمد ربه كلما عاد إليه وعيه !

الصنفان موجودان في الدنيا، والفارق بينهما شاسع ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: ٩)

وقيام الليل فريضة على النبي وحده، إن الإحساس بالله نهر جار في شعوره لا يتوقف أبدا ! في وضح النهار أو في جنح الليل لا يُرى محمد إلا موصول القلب بالله ! وهو بهذا الذكر الدافق في حسه، المستولي على نفسه ينضح على من حوله، ويصل الأرض بالسماء طهرًا وضوءًا، مستجيبًا لقول الله :





﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾

(الإسراء: ٧٨ ، ٧٩)

وقد حاول نفر من أصحابه أن يتابعوه في هذا النهج، لشدة حبهم له ورغبتهم في تقليده، غير أن الله سبحانه رحم ضعفهم، وحط عنهم ما جشموا به أنفسهم

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ (المزمل: ٢٠)

ذلك بالنسبة إلى الأصحاب، أما الرسول نفسه فبقي قيام الليل كله من خصائصه، وقد كان ينبعث إلى هذا القيام عن حب ورغبة لا عن تكلف وعنت، كان عميق الشعور بنعمة الله عنده، واصطفائه له، وإلى ذلك يشير عبد الله بن رواحة بقوله:

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشق مكنون من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقناتٌ أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

في الأيام الأولى للبعثة قيل له:



﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾

(المزمل: ٢ - ٤)

وقد استجاب لأمر الله حتى لحق بالرفيق الأعلى!

أما جمهور الأمة فلم يكلف بذلك، فليس القيام في حقه فريضة لازمة، ولا سنة مؤكدة، وهو نافلة مقبولة ممن يؤثر فيهم السهر، ولا يعجزهم عن أداء واجباتهم طوال النهار!

حسبهم ما يستطيعون قراءته بالليل، وأمامهم سبح طويل بالنهار:

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾

(المزمل: ٢٠)

والواقع أن الجهاد العسكري والاقتصادي يحتاج إلى يقظة ونشاط، والتفريط في هذا أو ذاك مضيعة للأمة.

ورأيت ناسًا يقومون الليل أحيانًا، ثم يجيئون إلى مكاتبهم ثقالًا يترنحون، فزجرتهم عن هذا المسلك، وشرحت لهم الحكم! ومع ذلك فما كانوا يسمعون!

وقد رُويتْ في الأمر بالقيام أحاديث ضعيفة مثل ما جاء عن بلال أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم، ومنهاة عن الآثام،



وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد».

ومع ما في سند الحديث من ضعف، فإننا نحمله على ما ورد في الصحاح مثل حديث عثمان -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»، ذلك أن النهوض للفجر فيه مقاومة للنوم، ومشي في الظلمة، واستفتاح للنهار بالخير قبل أن تطلع الشمس بوقت، وكذلك الانتظام في جماعة العشاء، وكانت قديمًا تتأخر، حتى تغمض عيون البعض في انتظارها.

وسئلت عائشة -رضي الله عنها-: أي حين كان يقوم الرسول ﷺ من الليل؟ فقالت: إذا سمع الصارخ - تعني الديك- ! وما فهمناه وافق ولله الحمد ما رواه أبو داوود عن أنس في تفسير قوله تعالى:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾

(السجدة: ١٦)

قال: نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة -يعني العشاء- كانوا يتنقلون بين المغرب والعشاء.

وزيادة في إيضاح الموضوع، نذكر أن الجسد البشري يحتاج إلى ساعات معينة ينام فيها، ويستعيد قواه، ويستحيل أن يستغني عن هذه الساعات التي قدرها الأطباء بثماني ساعات أو أكثر أو أقل حسب الأعمار المختلفة.





والقرآن الكريم يقر هذه الحاجة الطبيعية، ويلفت الأنظار إلى أنها من آثار اختلاف الليل والنهار:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾

(يونس: ٦٧)

﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾

(النبأ: ٩ - ١١)

وقد تنشأ أحوال يجب فيها العمل بالليل في ظروف السلم والحرب جميعًا، فعلى المرء أن يقوم بواجبه، وسيطاوعه جسمه مع تعويض يرد إليه ما بذل..

وهناك ناس لهم طاقة على العمل الكثير، مع الاكتفاء بنوم قليل! كما أن هناك من في أعصابه مدخر من النشاط يستطيع به أن يضم إلى عمل النهار جزءًا من الليل..

وهنا نؤكد أمورًا، أن اليوم الإسلامي يبدأ مع الفجر، فكل سهر يضيع صلاة الفجر مرفوض! وهناك قلة من الرجال تستطيع الجمع بين طول التهجد بالليل، وطول الكدح بالنهار، وهذه قلة لا يقاس عليها!

وقد يستطيع البعض أن يقرأ نصف القرآن في ليلة ثم يستقبل نهاره باسترخاء لا يساعده على أداء واجب، هذه







معصية ! لقد تلا ألفاظا لم يتدبرها وأهمل واجبات ترتبط بها حياته وحياة أمته !

وأوغل في المخالفة من يبيت يردد بعض أسماء الله الحسنى، ثم يصبح كليل التفكير لا يحسن شأنا في دنيا أو دين ! !

إن عمر بن عبد العزيز سرح فكره في آية واحدة ظل يرددها طوال الليل

﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾

(الصافات : ٢٤)

لأن دقة إحساسه جعلته يتصور -وهو أمير المؤمنين- أنه الموقوف المسئول، فطار النوم من عينه !

ولو أن قاضيًا سهر في قضية يتحرى الحكم العادل، أو مجتهدا سهر في موضوع يبحث فيه عن الصواب، لكان أولى بالله من قارئ لا يعي، أو قائم نائم الضمير والتفكير.





٧٥- كيف ولماذا اختير الأذان للصلاة؟ ولماذا لم يأت عن طريق الوحي مباشرة؟

لا أرى كلمات أحق بالسماع وأولى بالتأمل من كلمات الأذان، ولا أرى داعيًا أقرب إلى الرشد من المؤذن.. إن الكلمات الجهيرة المدوية في الآفاق.. تذكير بالله وحقوقه، تذكير بالعمل الذي خلقنا من أجله، إنها مناشدة لأبناء آدم أن يعرفوا، الصراط المستقيم ويثبتوا عليه، وأن يحذروا السبل المعوجة وينأوا عنها.

عندما يقول المؤذن: «الله أكبر الله أكبر»، ويؤكدها فكأنه يقول للإنسان: لا تدر حول نفسك واذكر من رباك وسواك، واجعله غايتك من مسعاك، يبارك لك في وقتك وجهدك.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾

(الشوري: ٢٠)

وعندما يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله» ويكررها مرة أخرى، فكأنه يقول للإنسان: لا تخش آلهة أخرى في الأرض، الأمور كلها صائرة إليه وحده، يبت فيها ولا راد لحكمه، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فانتصِب عزيز النفس رفيع الرأس، واذهب لتسجد لله، فإنك لن تذل بعده لأحد!

وعندما يقول: «أشهد أن محمدًا رسول الله» ويكررها مرة أخرى، فهو يرسم أمام بصيرتك صورة الكمال الإنساني لتقتدي به وتقتفي آثاره، محمد وحده الأسوة الحسنة في





الإيمان والتقوى والخلق والاستقامة.

وعندما يقول: «حي على الصلاة» ويكررها مرة أخرى فهو يدعوك لتتشرف بالمثول بين يدي ربك كي تسبح بحمده، وتستزيد من رفده وتشترك مع إخوان العقيدة في التجمع عليه والتحاب فيه.

وعندما يقول: «حي على الفلاح» ويؤكدها مرة أخرى فهو يدلك على الجهد المثمر والسعي الناجح، فما أكثر الذين يزرعون ولا يحصدون، أو يمشون ولا يصلون! أما أهل الصلاة فلا يضيعون:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (الحج: ٥٤)

وعندما يقول مرة ثالثة: «الله أكبر الله أكبر» فهو يؤكد الغاية الصحيحة من الحياة والكدح طول العمر، إن المرء يخرج من بيته لعمله، ليحصل ما يقدر عليه من نفع لنفسه وأهله، وصيحة التكبير التي يسمعها تهيب به أن يقصد ربه، ويجعل له عمله، وعندما يقدم نفسه لربه فسيجدها موفورة مقدورة، أما من آثر نفسه، فسيفقدها:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (الحشر: ١٩)

ويختم الأذان بصيحة التوحيد، لإسقاط الوثنيات كلها، إن العالم الآن لا ينحني لصنم من حجر، ولكنه يتفانى في





أصنـام حية قامت شـواخص مهيبة في دنيـا الحكم والمال، وخافها الناس أكبر مما يخافون رب الأرباب.

إن كلمـات الأذان منهج كامـل، ودعوة تامة، ما يمكن أن يغنـي عنه بريـق نار، ولا رنين جـرس، ولا صفير بوق.. إنها هتاف من الملأ الأعلى، يهيب بالبشر، أن يرجعوا إلى أصلهم السماوي العريق.

هـذه الكلمات نزلت من السـماء ولم تخـرج من الأرض، استمع إليها نفر من الصحابة في رؤى متقاربة، وأحد الملائكة الكرام يهتف بها، في أعقاب مؤتمر تباحث فيه الصحابة مع الرسول ﷺ حول أمثل الطرق للدعوة إلى الصلاة! والحديث هنـا يعـود بنا إلى الإجابة السـابقة، وكيف كانـت الملائكة تدنـو من الأرض تسـتمع الذكر من تاليه وهـو يناجي به ربه، وتعود بنا إلى الأثر الروحي لمحمد في أصحابه!

إن صحابيا أنكر نفسه لما أحس الفرق الشاسع بين حالته مـع رسـول الله وحالتـه بعد أن يخالـط الأهـل ويكابد هموم الـرزق، وظن أنـه نافق بهذا التفاوت حيث إنه مع رسـول الله ﷺ يكـون منيـر القلب، يتقلـب في مقام الإحسـان، وكأنه يشـهد ربه ويحس جلاله! حتى إذا رجع إلى البيت والشـارع والأهل والناس هبط واعتكر!!

قال له الرسـول: «لو بقيتم على حالتكم معي لصافحتكم الملائكة! ولكن ساعة وساعة!»[صحيح مسلم].

وكثير من الصحابة كان يسـتديم سـاعات الإشـراق التي





تجمعه بصاحب الرسالة العظمى، ويغالب إلى أمد طويل كثافة الطبع، ومشاغل العيش، وظلال الخلق!

جاء في السنة عن أبي عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار قال: اهتم رسول الله ﷺ بالصلاة: كيف يجمع الناس لها؟ فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة! فإذا رأوها أذن بعضهم بعضا، فلم يعجبه ذلك!

فذكر له شبور اليهود -البوق الذي ينفخون فيه للإعلام بصلاتهم- فلم يعجبه ذلك وقال: هذا من أمر اليهود! فذكر له الناقوس، فقال: هذا من أمر النصارى!

فانصرف عبد الله بن زيد الأنصاري، وهو مهتم لِهَمِّ رسول الله ﷺ، فأري الأذان في منامه.

وفي تفصيل آخر، يذكر الراوي أن رجلًا من الأنصار جاء فقال: يا رسول الله، إني لما رجعت -إلى بيتي- لما رأيت من اهتمامك رأيت رجلًا كأن عليه ثوبين أخضرين فقام على المسجد فأذن، ثم قعد قعدة ثم قام فقال مثلها، إلا أنه يقول: قد قامت الصلاة!

ولولا أن يقول الناس لقلت: إني كنت يقظان غير نائم! فقال رسول الله: «لقد أراك الله خيرًا، فمر بلالا فليؤذن»![سنن أبي داوود]

فقال عمر بن الخطاب: أما أني قد رأيت مثل الذي رأى، ولكني لما سُبقت استحييت، وقال فيه فاستقبل -الملك الذي رآه عمر - القبلة وقال: الله أكبر الله أكبر مرتين أشهد







أن لا إلـه إلا الله مرتيــن ، أشــهد أن محمدًا رســول الله مرتين ، حــي على الصلاة مرتين ، حــي على الفلاح مرتين الله أكبر الله أكبــر ـ لا إلــه إلا الله ، ثم أمهل هنيهة ، ثم قــام فقال مثلها ، إلا أنه زاد بعد ما قال حي على الفلاح «قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة» فقال رسول الله ﷺ : «لقنها بلالا ! فأذن بها بلال» .

وكان بلال ندي الصوت ، عذب الأداء ، وتتفاوت الروايات تفاوتا قليلا في عدد الألفاظ مع اتفاقها جميعًا في أصل القصة ومصدر التلقي .

وعندمــا أتجرد مــن التأثر بكل ما يــروى ، أراني أميل إلى ســماع الأذان ومتابعة كلماتــه الهادية ، فإني أحب أن أقاد من عقلي لا من أذني ! إن الأذان يوقظ فؤادي ، ويعرفني بربي على نحو ينسجم مع الفطرة السليمة .

ومن ثم استحب الشارع لسامعي الأذان أن يرددوا كلماته ، ويغرسوها في مشاعرهم ، عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال كنا مع رســول الله ﷺ فقام بلال ينادي للصلاة فلما ســكت قــال رســول الله : «من قال مثــل هذا يقينا دخل الجنة»[ســنن النســائي] ، وعن ســعد بن أبي وقاص أن رســول الله ﷺ قال : «مــن قــال حين يســمع المـؤذن وأنا أشــهد أن لا إلــه إلا الله وحده لا شــريك له وأن محمــدًا عبده ورســوله ، رضيت بالله ربا ، وبمحمد رســولا ، وبالإسلام دينا ، غفر له ذنبه»[صحيح مسلم] .

وعــن جابر أن رســول الله ﷺ قال : «من قال حين يســمع



النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلَّت له شفاعتي »[صحيح البخاري].

والمرء عندما يتأمل في كلمات الأذان يجدها خلاصات للرسالة الإسلامية، ووصفا لله قائما على الحق المطلق، الحق الذي لا يتغير بين مشرق ومغرب!

ماذا وراء تكبير الله وتوحيده والنداء الدائب لعبادته؟

إن هذا النداء يتنقل على سطح الأرض، عابرًا خطوط الطول فوق البر والبحر مصاحبًا الأرض في دورانها حول أمها الشمس ووظيفة محمد ﷺ العظمى تلبية الأمر الصادر إليهم.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾

(طه: ١٣٠)

إن الكون كله لا الأرض وحدها يتجاوب مع أصوات المؤذنين وهي تهيب بالبشر أن يهرعوا لمرضاة الله!

وليس بغريب أن يطلب من سامعي الأذان -وصداه لا يزال يرن في أذانهم- أن يدعوا للإنسان العظيم الذي يقودهم إلى الله، ويؤمهم على الصراط المستقيم! إنه والله جدير بالدعاء المستديم، أن يرفع الله درجته، ويجزيه عن المسلمين خيرًا.

على أن رؤى البشر مهما صلحت حالهم لا تكون مصدر



وحي ولا دليل، ولولا أن رؤيا الأذان أقرها النبي ﷺ ووافق على العمل بها، ما التزم العمل بها أحد!

ولعل الله سبحانه وتعالى أراد طمأنة نبيه على أن رسالته قد نجحت في تكوين جيل نقي الصفحة زكي السريرة يلتقي بالملأ الأعلى، فيسمع منهم وينقل عنهم، وقد قلنا في إجابة سابقة: إن الملائكة تتنزل على المؤمنين المستقيمين فتلهمهم الرشد، وتساندهم على الحق، وتقذف في قلوبهم بالبشريات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾

(فصلت: ٣٠)

لكن باب الأوهام والمزاعم لا بد من سده، فما يُقْبَل كلام عن عالم الغيب إلا من المعصوم وحده! والمسلمون مجمعون على أن الشريعة لا منبع لها إلا الكتاب والسنة.

وقد ظهر في عصرنا هذا ألوف اقتحموا ميدان التدين وزعموا أن وحيًا يجيئهم، وخير علاج لهم أن يقادوا إلى تبليغه في مستشفيات الأمراض العقلية.





٧٦- ما حقيقة الصوم وما حكمته؟

الصيام عبادة مستغربة أو منكورة في جو الحضارة المادية التي تسود العالم. إنها حضارة تؤمن بالجسد ولا تؤمن بالروح، وتؤمن بالحياة العاجلة ولا تكترث باليوم الآخر! ومن ثم فهي تكره عبادةً تقيِّد الشهوات ولو إلى حين، وتؤدب هذا البدن المدلل وتلزمه مثلًا أعلى.

إن الأفراد والجماعات في العالم المعاصر تسعى لا غير لتكثير الدخل، ورفع مستوى المعيشة ولا يعنيها أن تجعل من ذلك وسيلة لحياة أزكى!

ونسارع إلى تبرئة الدين من حب الفقر، وخصومة الجسم، فالغنى سر العافية، والجسم القوي نعم العون على أداء الواجب والنهوض بالأعباء، وإنما نتساءل: هل يتعامل الناس مع أجسامهم على أسلوب معقول يحترم الحقائق وحدها؟

يقول علماء التغذية: إن للطعام وظيفتين: الأولى إمداد الجسم بالحرارة التي تعينه على الحركة والتقلب على ظهر الأرض، والأخرى تجديد ما يستهلك من خلاياه وإقداره على النمو في مراحل الطفولة والشباب.

حسنا، هل نأكل لسد هاتين الحاجتين وحسب؟ إن أولئك العلماء يقولون: يحتاج الجسم إلى مقدار كذا من (السعر الحراري) كي يعيش.

الطعام وقود لا بد منه للآلة البشرية، والفرق بين الآلات





المصنوعة والإنسان الحي واضح، فخزان السيارة مصنوع من الصلب ليسع مقدارًا معينا من النفط يستحيل أن يزيد عليه، أما المعدة فمصنوعة من نسيج قابل للامتداد والانتفاخ يسع أضعاف ما يحتاج المرء إليه!

وخزان السيارة يمدها بالوقود إلى آخر قطرة فيه، إلى أن يجيء مدد آخر.

أما المعدة فهي تسد الحاجة ثم يتحول الزائد إلى شحوم تبطن الجوف، وتضاعف الوزن، وذاك ما تعجز السيارة عنه، إنها لا تقدر على أخذ (فائض) ولو افترضنا فإنها لا تقدر على تحويله إلى لدائن تضاف إلى الهيكل النحيف فيكبر أو إلى الإطارات الأربعة فتسمن!!

الإنسان كائن عجيب، يتطلع أبدًا إلى أكثر مما يكفي، وقد يقاتل من أجل هذه الزيادة الضارة، ولا يرى حرجًا أن تكون بدانة في جسمه، فذاك عنده أفضل من أن تكون نماء في جسد طفل فقير، أو وقودًا في جسد عامل يجب أن يتحرك ويعرق!!

كان لي صديق يكثر من التدخين، نظرت له يومًا في أسف، ثم سمعني وأنا أدعو الله له أن يعافيه من هذا البلاء، فقال -رحمه الله- فقد أدركته الوفاة: (اللهم لا تستجب ولا تحرمني من لذة السيجارة).

ولم أكن أعرف أن للتدخين عند أصحابه هذه اللذة، فسكت وقد عقدت لساني دهشة.





إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يعرف ما يضره، ويقبل عليه برغبة.. إنها الرغبة القاتلة!

على أن النفس التي تشتهي ما يؤذي يمكن أن تتأدب وتقف عند حدود معقولة، كما قال الشاعر قديمًا:

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى قليل تقنع

وهنا يجيء أدب الصيام! إنه يرد النفس إلى القليل الكافي، ويصدها عن الكثير المؤذي!

ذاك يوم نصوم حقا، ولا يكون الامتناع المؤقت وسيلة إلى التهام مقادير أكبر كما يفعل سواد الناس!

لعل أهم ثمرات الصوم إيتاء القدرة على الحياة مع الحرمان في صورة ما.

كنت أرمق النبي ﷺ وهو يسأل أهل بيته في الصباح: «أثم ما يفطر به؟»

فيقال: لا! فينوي الصيام، ويستقبل يومه كأن شيئًا لم يحدث.

ويذهب فيلقى الوفد ببشاشة ويبت في القضايا، وليس في صفاء نفسه غيمة واحدة! وينتظر بثقة تامة رزق ربه دونما ريبة، ولسان حاله يقول:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٥، ٦)

قلت: لو جاءني فطوري دون شاي لسخطت!! ولرفضت إمضاء ورقة على مكتبي، بل كتابة مقال!!







إنها لعظمة نفسية جديرة بالإكبار أن يواجه المرء البأساء والضراء مكتمل الرشد، باسم الثغر، والأفراد والجماعات تقدر على ذلك لو شاءت!

وأعتقد أن أسباب غلب العرب في الفتوح الأولى قلة الشهوات التي يخضعون لها، أو قلة العادات التي تعجز عن العمل إن لم تتوافر.

يضع الواحد منهم تمرات في جيبه وينطلق إلى الميدان، أما جنود فارس والروم فإن العربات المشحونة بالأطعمة كانت وراءهم، وإلا توقفوا.

وقد اعتمد غاندي على هذا السلاح عندما حارب (بريطانيا) العظمى.. كان الإنتاج البريطاني يعتمد على الاستهلاك الهندي.. وقرر غاندي أن ينتصر بتدريب قومه على الاستغناء، نلبس الخيش ولا نلبس منسوجات (مانشيستر)، نأكل الطعام بدون الملح ما دامت الدولة تحتكره، نركب أرجلنا ولا نركب سياراتهم.

وقاد حركة المقاطعة رجلٌ نصف عار جائع، ينتقل بين المدن والقرى مكتفيًا بكوب من اللبن.

واستجابت الجماهير الكثيفة للرجل الزاهد، وشرعت تسير وراءه فإذا الإنتاج الإنجليزي يتوقف، والمصانع تتعطل، وألوف مؤلفة من العمال الإنجليز يشكون البطالة.

واضطرت الحكومة إلى أن تطلب من (غاندي) المجيء إلى لندن كي يتفاوض معها، أو يملي شروطه عليها!





وحيّـاه أحمد شـوقي وهو ذاهب إلى لنـدن بقصيدته التي يقول فيها محذرًا من ألاعيب الساسة :

وقـــل هـــاتـــوا أفـاعـيـكـم
أتـــى (الـــحـــاوي) مـــن الـهـنـد

إن الإنسـان الذي يملك شـهواته قوة خطيرة، والشـعب الذي يملك شهواته قوة أخطر، فهل نعقل؟

فـي صيـام غانـدي وأثر سياسـته علـى إنجلتـرا، وظفره باستقلال الهند يقول الشاعر القروي سليم خوري:

لـقـد صـام هـنـديٌّ فُـجـوِّع دولـةً
ومـا ضـار علجا صـومُ مـليـونِ مسلم
تـجـشـم عـن أوطـانـه صـوم عـامـد
فجشم أوطـان الـعِـدا صـومَ مُـرغَـم!
وخـلـى بـلاد الـظـالـمـين بـلاده
تـضـيق بـجـيش الـعـاطـلـين الـعـرمـوم
وألـقـى على (مانشيستر) ظـل رهبة
تـضـج بـأشـبـاح الـشـقـاء الـمخـيـم
أهـــاب بـــآلات الـحـديـد فَـعُـطِّـلـت
مـصـانـع كـانـت جـنـة الـمـتـنـعـم
وشـــل دوالـــيـــب الــرخــاء بـصـرخـة
أدارت دوالـيـب الـقـضـاء المحتِّم
كساها نسيج العنكبوت وكم كست
جـسـوم الـبـرايـا بالقشيب المنمنم





تـهـدمـهـا أســـرار نـفـس عـجـيـبـة
تـجـول بـــذاك الـهـيـكـل الـمـتـهـدم
فـيـالـك مـن عــار، لـديـه تـصـاغـرت
جـبـابـر أبـــدان، وعـقـل ودرهـــم!!
وراحـــت مـلـوك الـمـال تشكو ببابه
مـن الـظـلـم، يـا للظالم المتظلم!!

وفي عيد الفطر يقول رشيد سليم خوري أيضا:

أكـــرم هـــذا الـعـيـد تـكـريـم شـاعـر
يـتـيـه بـــآيـــات الـنـبـي الـمـعـظـم
ولـكــنــنـي أصـبـــوا إلـــى عـيـد أمـة
مـحـررة الأعـنــاق مــن رق أعـجـم

أحفـظ للشـيخ الكبيـر (محمد الخضر حسـين) شـيخ الأزهر الأسبق كلمة عظيمة:

«لسـت أنا الذي يُهَـدَّد، إن كوبًا من اللبـن يكفيني أربعًا وعشرين ساعة»!

ومـن قبله قال الشـيخ عبد المجيد سـليم وقد حذروه من غضب جهات عالية:

«أيمنعني ذاك من التردد بين بيتي والمسجد؟ قالوا: لا.. قال: لا خطر إذن! ليس هناك ما يخاف».

مـن أركان العظمـة أن يجعل الرجـل مآربه مـن الدنيا في أضيق نطاق مسـتطاع.. إنه يُعنِّي عدوه بذلك الاسـتعفاف أو الاستغناء.





وذلـك نهج الشـرف الذي خطه علـيّ بن أبي طالـب عندما قال: «استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره».. وما يستقيم على هذا النهج إلا امرؤ يحسن الصيام.

أعجبتنـي هذه الوصية لأبي عثمان النـوري لابنه، وأثبتها الجاحـظ وليس لي في كتابتهـا إلا فضل النقل.. «يا بني كل مما يليك، واعلم أنه إذا كان في الطعام لقمة كريمة أو شـيء مسـتطرف فإنما ذلك للشـيخ المعظـم أو الصبـي المدلل، ولست واحدًا منهما.

يا بني عود نفسـك مجاهدة الهوى والشـهوة، ولا تنهش نهش السباع، ولا تخضم خضم البغال، ولا تلقم لقم الجمال، الله جعلك إنسـانًا فلا تجعل نفسـك بهيمة، واعلم أن الشبع داعية البشم، والبشم داعية السقم، والسقم داعية الموت.

ومـن مـات هذه الميتـة فقد مات ميتـة لئيمـة، لأنه قاتل نفسه، وقاتل نفسه ألأم من قاتل غيره.

يـا بنـي والله ما أدى حـق الركوع والسـجود ممتلئ قط! ولا خشع لله ذو بطنة، والصوم مصحة، والوجبات عيش الصالحين..

يا بني قد بلغت تسـعين عامًا ما نقص لي سـن ولا انتشـر لي عصب، ولا عرفت ذنين أنف، ولا سيلان عين، ولا سلس بول، وما لذلك علة إلا التخفف من الزاد.

فـإن كنت تحـب الحياة فهذه سـبيل الحيـاة، وإن كنت تحب الموت فتلك سبيل الموت، ولا أبعد الله غيرك».

هــذه وصية رجل لا يعرف عبادة الجسـد التي تهاوى فيها أبناء هذا العصر، والتي جاء فيها قوله تعالى:





﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ (الحجر: ٣)

وقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴾ (محمد: ١٢)

وتجتاح الناس بين الحين والحين أزمات حادة تقشعر منها البلاد، ويجف الزرع والضرع، ما عساهم يفعلون؟ إنهم يصبرون مرغمين أو يصومون كارهين وملء أفئدتهم السخط والضيق.. وشريعة الصوم شيء فوق هذا، إنها حرمان الواجد ابتغاء ما عند الله. إنها تحمُّلٌ للمرء منه مندوحة لو شاء ولكنه يخرس صياح بطنه، ويرجئ إجابة رغبته، مدخرًا صبره عند ربه، كيما يلقاه راحة ورضا في يوم عصيب.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴾

(هود: ١٠٣)

وربط التعب بأجر الآخرة هو ما عناه النبي ﷺ في قوله: «من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»![صحيح البخاري]

إن كلمتي (إيمانًا واحتسابًا) تعنيان جهدًا لا يستعجل أجره، ولا يطلب اليوم ثمنه، لأن باذله قرر حين بذله أن يجعله ضمن مدخراته عند ربه.. نازلًا عند قوله:

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾

(النبأ: ٣٩)





وسوف يجد الصائم مفطرين لا يعرفون لرمضان حرمة ولا لصيامه حكمة، إذا اشتهوا طعامًا أكلوا، وإذا شاقهم شراب أكرعوا.. ماذا يجدون يوم اللقاء؟

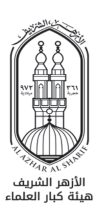
إنهم يجدون أصحاب المدخرات في أفق آخر، مفعم بالنعمة والمتاع، ويحدثنا القرآن الكريم عمن أضاعوا مستقبلهم فيقول:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ (الأعراف: ٥٠، ٥١)

إن الصيام عبادة مضادة لتيار الإسراف السائد في الحياة الآن، لأن الفلسفات المادية المسيطرة في الشرق والغرب تعرف الأرض ولا تعرف السماء، تعرف الجسم ولا تعرف الروح، تعرف الدنيا ولا تعرف الآخرة.

ليكن للقوم ما أرادوا، ذلك مبلغهم من العلم! بيد أننا نحن المسلمين يجب أن نعرف ربنا، وأن نلزم صراطه، وأن نصوم له، وأن ندخر عنده!

على أن هناك حقيقة مؤسفة هي أن الصوام قلة وإن امتنع عن الطعام كثيرون!



الفهرس


الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

❊❊❊